رائحة
الحبيب

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

القاعود ، حلمي محمد
رائحة الحبيب/تأليف: أ.د. حلمي محمد القاعود.
- ط1- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، 2017.
80 ص ؛ 20 سم.
تدمك: 437 6515 977 978
1- القصص العربية 2- القصص التاريخية
أ- العنوان 813

* تاريخ الإصدار: **1438هـ -2017م**
* حقوق الطبع: **محفوظة**
* رقم الإيداع: **2017/3744م**
* الترقيم الدولي: **ISBN: 978 - 977 – 6515 - 437**
* الكود: **2/468**

الوادي
للثقافة والإعلام

ص.ب (130 محمد فريد) القاهرة 11518
darannshr@hotmail.com

أ. د. حلمي محمد القاعود

رائحة الحبيب


بسم الله الرحمن الرحيم

رباعية الأم والولد

وقلت لنا يا أم أن قميص يوسف عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ رد البصر إلى أبيه، وأبصر يعقوب الدنيا، وشاف أولاده جميعًا: الطيب منهم والشرير .. وقد عاد شبابي بأحباب يوم شممت رائحة الحبيب على وريقة بيضاء. هل تظنونني جننت؟! لا يا أولادي. إن كل كلمة خطها محفورة في قلبي، تزغرد في صدري، ترمح أمام عيني .. أنا أعرفها، وأعرف خطه جيدًا .. أعرفه وهو صغير يكتب الكلمات بيده الغضة وأصابعه الرقيقة .. كانت كلماته يومها مثل البيوت المتداعية، وتشبه الجدران التي كان يبنيها مع رفاقه الصغار بالحصى والحجر .. كل كلمة تكاد أن تقع على الأرض .. حين كبر ودخل الإعدادي كان خطه أجمل من خط أستاذه .. شهدوا له جميعًا وأعطوه الجوائز .. كان في المقدمة دائمًا .. يحبه التلاميذ والمعلمون .. وحتى الفراشين يا أولاد كانوا يحبونه .. ألم تروا داركم وهي تزدحم بكل زملائه في الشارع والحارات المجاورة؟! كان لا يفترق عنهم ولا يفارقونه .. مرة شكا إليَّ أحدهم، وقال: يا خالة، ابنك اشترى للأستاذ خيزرانة، وأخفاها بين طيات لوحة الرسم؛ حتى لا تعرف، وفاجأنا وهو يعطيها للأستاذ .. تصوري يا خالة .. كانت العصا تلهب أصابعنا، ونظل

ننفخ في أيدينا حتى نذهب النار عنها! أيرضيك يا خالة؟! قلت له: لا تزعل يا حبة عيني، سوف أوبخه، وأشكوه إلى أبيه، وعندما دخل الدار انطلقت فيه بلساني مثل الصاروخ .. الصاروخ الذي يحدثكم عنه دائمًا ويسقط به طيارات اليهود. قلت له: لماذا تتسبب في إيذاء إخوانك؟! أنت ولد كذا وكذا ... و ... وظللت يا أولاد أوبخه، لكنه كان يضحك حتى كاد يقع على الأرض، وقال من بين الضحكات: دعيه يستذكر دروسه وهو لا يصرخ من الخيزرانة. سكت يا أولاد، وضحكت في سري من هذه «العفرتة»، وقلت له: لا تكن مؤذيًا يا ولدي .. فكان يضحك ويمضي ..

إني أعرف خطه جيدًا، وأعرف صورة كلماته وشكل حروفه، رغم أني لا أعرف كيف أكتب اسمي .. بل لا أعرف كيف أمسك القلم .. وأنتم تعرفون ذلك يا أولاد .. تضحكون عليَّ حين أنظر في الجريدة ولا أستطيع القراءة .. أتذكرون يوم أمسكت بالجريدة مقلوبة، وأخذت أحدق في الصور .. ظل يومها ينظر إليَّ، ويمعن في النظر، وأنتم جميعًا تترقبون وتكتمون شيئًا في داخلكم، وساعة أن عدل وضع الجريدة، انطلقتم ضاحكين، وأخزيتموني! .. آه من شقاوتكم يا أولادي!! .. هل تظنوني لا أعرف شيئًا أبدًا؟! أنا أعرف كل شيء وإن لم أستطع الإفصاح عنه .. جاء الخفير إلى الدار، وطرق الباب وصاح:

يا خالة: محمود أرسل جوابًا .. لم أعرف نفسي .. تهت .. زغردت .. صوَّت .. الله أعلم بالذي حدث، وأنتم تعلمونه. قال الخفير إن الجواب في المركز، والمركز أرسل إلى النقطة، والنقطة أرسلت إلى العمدة، والعمدة أرسل إلى أبي محمود .. أبيكم .. ليذهب إلى هناك ويتسلم الرسالة .. كان فوق المظروف أختام في حجم ساعة الجيب المعلقة في صديري أبيكم .. ولما شفت الرسالة من الداخل، عرفت الخط يا أولاد .. عرفته والله العظيم .. أنا أعرف شكله منذ كان ولدي صغيرًا، فكيف لا أعرفه وهو شاب كبير؟! سمعت من أبيكم سلامه عليَّ، وعلى كل واحد منكم باسمه، وكل الأقارب والأحباب، ومن يسأل عنه صغيرًا وكبيرًا .. بعث إلى الجميع بالسلام .. فيه الخير .. لا ينسى أحدًا من أهله وذويه .. لم أصدق يا أولاد أنه ذكر كل هؤلاء الناس .. كنت أظنه نسي كل شيء، وهل يذكر الأسرى أحدًا بعد العذاب الذي شافوه؟! آه يا أولاد !! .. هل صحيح أن اليهود كانوا يرمون السيجارة الواحدة أمام الأسرى كلهم يتقاتلون عليها؟! والله سمعت بهذا يا أولاد، وتقطع قلبي، ولكن الذين كانوا معه في أثناء الحرب قالوا إن «محمودًا» لا يكلم أحدًا، وقالوا إنه صادق أبدًا .. ينظر أمامه ساكنًا ساكتًا .. ونادوا ما يرد على أحد .. فقط كان يمسك ورقة وقلما ويكتب فيها أشياء، ثم يمزقها ويقذف بها حيث لا يراها أحد ..

يجلس ولا يتحرك كثيرًا، مثل تمثال وقور هادئ .. تورمت قدماه من السير في الصحراء، فلم يقل آه !! .. لم يحدث له ما حدث «لحامد الشيمي»، حين كان يسرح مع إخوته، ويعود إلى أمه مجرح اليدين من عشر عزقات بالفأس، ومفلوق القدمين من خشونة الأرض وقسوة الحشائش، لكن حامدًا ما زال يأتي إلى أمه وهو لا يأتي .. أقوم في لهفة يا أولاد حين يدق باب دارهم في منتصف الليل قادمًا من الجهادية، وتسبقه دقات قدميه على الأرض. إن خطواته الثقيلة تقول لي سوف يأتي محمود رضوان .. محمود لا يفترق أبدًا عن حامد .. كانا كذلك .. أخرج ولهي، وأذهب إلى دار الشيمي .. أقتحم عليهم الباب .. ولدي يا حامد، أين محمود يا ولدي؟ حامد ولد حساس يا أولاد .. يقول لي: سوف يأتي يا خالة إن شاء الله، ثم يسألني عن أحوالي وصحتي وصحة أبيكم رضوان، ويتحدث عن الأرض والمحصول والدودة والكيماوي، ولكني أسأله عن محمود، فيخبرني أنه سوف يأتي بالمبادلة بواسطة الـ ...... الأحمر ...... ما اسمه يا أولاد؟ أنتم تعرفونه .. الصليب ... الأحمر .. لا تؤاخذوني يا أولاد؛ فإنني أنسى كثيرًا هذه الأيام .. وإن لم يأت يقول الولد حامد: سوف نأتيك به .. محمود أرسل إليه السلام أيضًا .. كان سلامه أول سلام بعد سلامات العائلة .. محمود يحبه جدًّا، وحامد أيضًا .. أظل أسأل حامد عن

محمود وزملاء محمود .. ماذا تعملون الآن؟ ولماذا أنتم ساكتون؟ كل دار فيها واحد عسكري مثلك يا حامد .. ادخلوا وعدوا ونحن في انتظاركم .. يا من يأتيني بولدي وأعطه عمري! نظرة واحدة فقط تلتقي العين بالعين، ولا شيء بعدها أبدًا يا أولاد .. أنادي عزرائيل: تعال خذ روحي طالما جاء حبيبي .. بدلة حامد يا أولاد تذكرني ببدلة محمود .. كنت أصلحها بيدي له، وبإبرتي حتى تصبح على القد تمامًا .. كل البدلات الصفراء غير مضبوطة، ولأنه صغير الحجم كان من الضروري أن أصلح له كل بدلة جديدة .. أصلحت له اثنتين فقط، وبعدها لم يعد، ولم يأت خبر إلى اليوم .. كنت أريده هنا، وأنا لم أتعب أبدًا لو صنعت له كل يوم بدلة جديدة ؟. لابد أن أصلح لحامد الشيمي بدلته أيضًا .. وماذا في ذلك؟! حامد مثل محمود ومثلكم أيضًا .. أصحاب وأصدقاء وزملاء، وتوظفتما معًا في البراري، في الشمال عند السمك والصيادين .. ولما جاء الدور عليهم راحا إلى الجهادية .. من زمان نذرت لله لو أبقى لي محمودًا لأزغرد يوم يطلبونه إليها، وزغردت يا أولاد يوم حقق الله أملي، وأبقاه، وكبر، وجئتم بعده، وأصبحتم كثيرين مثل الهم على القلب .. جاء أول إجازة وتمنينا له: ما أحلاك في البدلة الميري، فكان يضحك مع أصحابه .. كان يجلس في المندرة، ويظل يحكي لهم طول الليل عن العساكر

والعسكرية، ولكنه – يا حبة عيني – لم يأت، ولم أره بين العساكر الذين يدقون في منتصف الليل شوارع البلد بأحذيتهم، قادمين من محطة البندر .. شباكي مفتوح حتى يطلع الفجر .. أنظر إلى بعيد، وأتطلع إلى الطريق، وأقول لنفسي: الآن ينزل القطار، معه أحد؟ ربما.. وحده؟ آه يا ولدي تمشي وحيدًا في جوف الليل الكيلو مترات السبعة حتى تأتي إليَّ، وأضمك إلى صدري، وأقبلك على جبينك، ثم أذبح لك فرخة، وأحلف عليك بحياة أبيك ألا تنام حتى تأكل وتشبع وأطمئن عليك .. ينهرني الرجل أبو محمود: نامي يا امرأة .. دعيها لله .. كل شيء بحساب عند الله .. والمكتوب على الجبين لازم أن تشوفه العين .. أرد عليه يا أولاد وكلي غضب من هذا الرجل .. قلبه حجر ... لا يعرف كم أنا مشتاقة لولدي وخائفة عليه !! .. أما هو فيجلس ويلف من علبة الدخان طوال الليل لفائف كثيرة حتى يأتي على آخرها .. لا يتكلم إلا عندما يسمع بوصول «حامد الشيمي» .. ما أخبارك يا حامد؟ كيف حالكم الآن؟ سمعت أن الشتاء القادم سوف يكون نارًا موقدة .. فهل أنتم على استعداد؟ الولد حامد يرد فورًا: نحن بخير يا عم «رضوان»، وسوف نأتيك بمحمود قبل أن يبعثوا به. يا ليت يا ولدي .. سمع الله منك .. قرأت أن الأسرى في عتليت «والدمون» يعذبون عذابًا وحشيًّا، وأخاف على «محمود» يا «حامد» أن

يزهق روحه. الولد حامد يقول لأبيكم: لا تخف يا عم .. محمود أعقل من كل الناس .. أنسيت أن أقدامه قد تورمت في الصحراء بحثًا عن الطريق، وكاد يموت من الظمأ والجوع، ولم يستسلم إلا حين أظلمت الدنيا فوق الصحراء؟!

لا أعرف يا حامد .. يقولون كثيرًا، ولكني لا أعرف .. لا أعرف، واختنق صوته بغصة البكاء، حاول جاهدًا أن يخفيها، ويمنع حبة بلورة من التساقط على صفحة وجهه الخاشع، وتماسك وتجلد ..

– حامد يا ولدي .. المهم أن محمودًا أرسل من «عتليت» رسالة، ويسلم عليك سلامًا قويًا، ومشتاق إليك شوقًا حارًّا ..

– سوف أسلم عليه بيدي «يا عم»، وأقبله، وأضمه إلى صدري، وآتيك به يا عم، ولا حاجة للرسائل .. لن أكتب إليه رسالة .. أنا مشتاق إليه، ولكني أريد أن أراه بنفسي .. أراه قريبًا إن شاء الله ..

يضحك الرجل، وتنفرج أساريره مثل طفل يملك لعبة ليست مع أطفال الحارة .. دائمًا يا رضوان تعبس رضوان .. الله يعينك يا ولدي .. تعبث هناك وتأتي لنوجع دماغك بكلامنا . أنت ابننا يا حامد .. لا تتأثر بما نقول، فأنت مثل محمود تمامًا .. تعرف يا حامد أن لك منزلة كبيرة عندنا منذ الصغر .. كنت أقسم الرغيف بينكما،

وأعطي كلًّا منكما قطعة سكر .. وتبقى في دارنا حتى الليل .. وكان الناس يغلطون، فيدعونني بأم حامد، وينادون أمك بأم محمود .. ناس آخرون كانوا يحسبونكما شقيقين وولدين لي، وأنا أعتبركما كذلك، وإن لم أرضعك من ثديي .. قل لي يا حامد: هل هو الآن جائع؟ أم يأكل طقة واحدة في اليوم؟ سمعت من يقول ذلك. هل نبعث له زوادة؟، نصنع له فطيرًا وجبنًا وحلوى وشايًا وسكرًا .. كان يحب الفطير .. الفطير الذرة الساخن .. ولكن هل سيصل إليه ساخنًا أو حتى باردًا .. آه يا حبيبي، سوف يعارضني رضوان ويقول لي: يا مجنونة، اسكتي، لا تفكري في مثل هذه الأشياء. والذي خلقه كفيل به .. كم أنت مؤمن وصابر يا رضوان رغم لسانك الطويل ووجهك العابس، ولكن حبة عيني يشتهي الفطير الساخن .. نحن في الربيع واللبن كثير والقشدة تملأ الدار، ولا أستطيع أن أبعث لولدي بفطيرة .. لا تزعل يا حبة عيني، سوف تأتي، وسوف أصنع لك الفطير، وستأكله وهو ساخن كما تشتهي، ولن تأكله وحدك، سيأكل معك حامد الشيمي، الذي أوجعنا رأسه بالسؤال والكلام عنك، لكنه ولد طيب وابن حلال، ولولا الصحراء لذهب إليك ماشيًا، واقتحم الدار التي يسجنونك فيها، وأتى بك إلي .. هكذا يقول دائمًا «حامد»، وأنا أصدقه؛ لأنه لا يكذب .. أتعرف لماذا؟ لأننا منذ بعدت عنا ونحن نسأل ولا أحد

يجيب. ناس قالوا: محمود رضوان في ذمة الله .. وأغلب الناس الباقين .. معظم البلد قالوا إنه أصبح ترابًا، والبقية القليلة جدًّا منهم قالوا إنك حي وتائه في الصحراء، وخمنوا أيضًا أنك وصلت إلى فلسطين وعشت هناك، مثلما يعيش الفلسطينيون، ولبست عقالًا وكوفية وعباءة فضفاضة! أنا تحيرت .. أصدق من؟ الذين قالوا بالموت، أم الذين قالوا بالحياة؟ شيء واحد فقط صدقته: أنك بعيد عني، وقلبي يحترق من أجلك كل ثانية من الزمن .. أما أبوك يا محمود لم يقل شيئًا أبدًا .. كان يأخذ كل خميس نبات الصبار، ويذهب إلى جبانة البلد على مقبرة العائلة، يضع الصبار، ويقرأ الفاتحة والصمدية إحدى عشرة مرة، ويعود صامتًا لا ينطق .. لم يتكلم إلا يوم قرأ رسالتك بعد الغيبة الطويلة .. يومها بكى .. بكى بحرقة .. ونزلت الدموع نهرًا على الخدين .. كفكف دمعك يا رضوان .. الحمد لله أن الولد حي ولم يمت .. نذر أبوك لك أن يذبح عجلًا أمام السيدة الطاهرة، ويقيم فرحًا كبيرًا، ويأتي بأحسن المقرئين والمنشدين وأنوار الكهرباء الملونة، وسوف يقسم عليَّ أن أزغرد، ويرقص بالعصا قدام الناس أجمعين. بيني وبينك يا ولدي كنت أصدق «حامد» .. أنا أستريح إليه وإلى كلامه .. لا يقول إلا الحق .. وأيضًا قلبي دليلي أنك حي .. لكن هل أنت سليم يا ولدي أم مريض؟ أريد أن أطمئن عليك .. حامد يقول

إنك بخير .. وليتك كذلك .. أنت وحامد وكل الفتيان .. أنا في انتظارك يا غالي .. لا أمل ولا أجزع ... أسأل كل النجوم عندما تظهر في كبد السماء، ألم تروا حبيبي؟ أراهم يضحكون أحيانًا وفي أحيان أخرى يأخذهم الخجل، فيغيبون عن عيني، فأطل على الحارة؛ لأرى الدنيا ساكتة لا تنطق، مثل أبيكم قبل أن تأتيه الرسالة. أتخيلك قادمًا من بعيد. سوف تطرق الباب بعد لحظات .. أتوجه إلى الباب .. سأفتح؛ حتى لا تتعب نفسك وتدق بيدك .. دقاتك أعرفها .. دقة ثم تسكت، دقة أخرى ثم تسكت .. أعرف أنك هو ..أجري ويعرف الأولاد والدار كلها أنني أجري لأفتح لك .. فيجري الكل معي، ويبدأ المولد؛ فقد جاء الخليفة .. ليس لدينا حصان أشهب، وأعلام خضراء، لكن نذرًا عليَّ أنا وليس على أبيكم، عندما تأتي، سوف أعلن في البلد أن مولد «أبو التقى» قد بدأ، وسيركب الحاكم .. ثم الخليفة، وتدور «السيارات» مع الدراويش وأهل الله حول البلد سبعة أيام، ويطعم الفقراء واليتامى وأبناء السبيل .. سوف أصنع لهم الفتة والكباب واللحم المسلوق .. أهناك أغلى منك يا حبيبي أصنع له مولدًا حقيقيًّا باسم مولانا «أبو التقى» رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ؟! فقط أريدك أن تأتي وترى، وسوف أفعل كل ما أحب وتحب، وأبوك سوف يضحك، وسوف يجلس على المصطبة كأيام زمان، ويتضاحك مع كل الناس

الغادين والرائحين، ويقرأ لهم في الجريدة، ويحكي لهم أخبار الدنيا الكبيرة، ويروي لهم أيامك وزمن الفراق .. هو يحفظ كل شيء ولا ينسى أبدًا .. صحيح أنه الآن زعلان، ولا يتكلم إلا قليلًا، ويشرب أوقيتين من الدخان في اليوم، وطول النهار يلف ويعفر الهواء كما يفعل الفرن .. وعندما يأتي سوف ينسى كل هذا، ويبدأ حكاياته القديمة ويمارس الضحك، ويسألك عن شاربك وذقنك .. كنت تنوي أن تكون سنيًّا، ولكنهم في الجهادية مسحوا ذقنك وشاربك .. يبدو أنك الآن سني رغم أنفك .. عيني يا ولدي ما تريده لا يتحقق، وما تريده يتحقق رغمًا عنك ..

اللّٰهم صبرني .. أنا لست حزينة يا بني .. أبدًا .. أنا مطمئنة ورسالتك طمأنتني أكثر .. شممت فيها رائحتك وعرفت خطك، وشفت كل شيء فيك من خلاله .. وها أنتم يا أولاد ترونني بنت ستة عشر .. أقوم من رقدتي .. أجري في كل الدار .. رجعت صبية يا أولاد .. وسوف أحلب لكم البهائم، وأخبز لكم فطيرًا، وأبقي منه فطيرة لأخيكم؛ لعله يأتي .. يأتي الليلة أو غدًا .. وقلت لنا يا أم .. وقلت ..

(مايو 1971)

***

أشياء حبيبي

وقلت لنا يا أم: أترونني وأباكم تغيرنا كثيرًا منذ قرأ «حامد الشيمي» رسالة أخيكم «محمود رضوان»؟! هذا والله عشمي منذ زمان .. أما وقد أوفى الزمان بوعده، فهذا فضل من الله ومنة .. لا تؤاخذوني يا أحباب .. أكثرت عليكم من الكلام حقًّا .. أتكلم باستمرار .. في كل مناسبة أتحدث وأرغمكم على السماع .. أنا أمكم، واسمحوا لي أن أتثاقل عليكم .. آخذ بحقي كلامًا .. كنت أحملكم وأنتم صغار حتى تكل يداي، وكنتم تبولون وأغسلكم، وترمحون على الطرقات فأداوي جرح من ينكفئ على الأرض، وأرتق ثيابه، وحين أسأل عما حدث، أجيب بما يمنع التأنيب عنكم والعصا .. ألستم أولادي وفلذة كبد؟! الحق أقول إن أخاكم محمودًا لم يثقل عليَّ أبدًا .. مساه الله بالخير وصبحه به .. كان سمحًا صبورًا .. وكان يستمع إليَّ ولا يمل .. كان يحب أمه، وكان حبيبي .. أحبه حبًّا جمًّا، فاغفروا لي يا أولاد كلامي الكثير بلا مناسبة؛ لأني أود أن أرى أخاكم، وأدفع عمري ثمنًا لرؤيته مرة واحدة .. أتملى من وجهه الصبوح، وأطبع على جبينه الوضاح قبلة، وأشده من ذقنه الذي استطال في «عتليت»، ولم يطل في «كفرنا» الحزين. مجرد أن أراه فقط يا أحباب، وكل العالمين

خراب بعد الآن. «حامد الشيمي» رأيته هذه المرة وكان ساهيًا .. حاولت أن أجره إلى حديث، فبدا صامتًا .. كان يتكلم بصعوبة .. لست أدري يا أولاد ما الذي جرى له، هل حدث له شيء؟ الله أعلم .. جاءتني أم «حامد» منذ أيام، وقالت لي: يا أم محمود، حامد ولدي لا يأكل كالعادة .. يأكل اللقمة ويمضغها كأنه يمضغ زلطة أو حصاة .. لقيمات ثم ينهض .. شبعت يا أماه .. أهذا أكل جائع؟! ماذا يا ولدي؟! يقول: أنا شبعت وكفى. وهو أيضًا صامت، لا يتكلم كثيرًا. أصبح مثل أخيكم محمود يوم كان في «الكفر» شابًّا فتيًّا، يجلس مع الرجال، ويكتفي بالسماع فقط .. أنا متشائمة من الصمت يا أحباب .. كل الصامتين ألغاز، ولا تحل هذه الألغاز إلا بعيدًا عن الديار! حتى هو أيضًا لم يأت منذ فترة طويلة .. أنا قلقة عليه مثل أمه، وهي قلقة ومرتعبة .. تسأل دومًا كل قادم من العساكر عن «حامد»، فيقولون لها: لسنا ندري يا خالة .. ربما يأتي في آخر الأسبوع، أو في أول الشهر القادم .. المهم أن «حامدًا» لم يأت حتى الآن.

يقولون إن آخر رسالة بعث بها من الجهادية كانت مختصرة ومقتصرة على السلام والسؤال عن الأحوال، ولم يقل جرى أو كان. يبدو أن أم حامد الشيمي سوف تكون مثلي تمامًا .. ولكن، يا عيني عليها .. تنتظر مجهولًا أكثر غموضًا من مجهولي .. أخوكم هناك، أما

حامد الشيمي فلا يعرف أحد أين هو .. قد يكون مريضًا في مستشفى، أو ذهب في مهمة سرية أو ... شديد عليَّ أن أقولها .. أقول: مات! من يعلم؟ الله وحده يعلم. أم «حامد» قلقة على واحد فقط .. أما أنا فأصبحت قلقة على الاثنين: محمود وحامد .. أليسا ولديَّ؟! الأول بالرضاع والثاني بالتربية والحب؟! كان حامد يعوضني كثيرًا عن محمود، وكان يصبرني .. يقرأ أمامي آي القرآن الكريم، فيهجع قلبي، ويطمئن خاطري، وتنهل دموعي غزارًا؛ حزنًا على أسير، وأسى على مجاهد! فاللهم الطف بي وأسبغ عليَّ بالصبر نعماك .. رضيت بالهم، ولم يرض الهم بي، فجزعت على أخوين من البنين .. يا أم حامد قلبي معك، فلا تيأسي من روح الله. لماذا تقدرين المستحيل السيئ دائمًا؟! قدري الخير، وظني بالله ظنًّا حسنًا .. قد يفجؤك في عز الليل قادمًا من بعيد، يدب بحذائه الثقيل، فتصحين، وتزغردين، وتدقين الباب علينا؛ لنصحوا جميعًا، وننتقل إلى دار «الشيمي»، فنسلم على حامد، ونسأله وندقق عن الأحوال والأخبار، ونسأله أولًا وآخرًا عن ابننا «محمود» رضوان. قلبي عليك يا أم حامد .. جاءتني اليوم بشيء كان في دولاب «حامد» .. علبة صغيرة من الورق .. كانت تتشمم آثار ولدها، ففتحت دولابه، وفتشت ملابسه .. أصلحت المزق في بعضها، وأحالت البعض الآخر إلى طست الغسيل؛ ليكون معدًّا في انتظار

فتاها. ثم راحت يدها تعبث في أوراقه وصوره، حتى عثرت على هذه العلبـة .. افتحوهـا يـا أولادي .. فليـأت أحـدكم بهـا وليفتحهـا .. فلأفتحها أنا .. ها هي صورة «حامد الشيمي» مع .. وهما في لباس البحر على شاطئ «رأس البر» .. كانا في أول الصبا .. وهذا حامد في بذلته العسكرية .. وهذه وهو يرتدي منظارًا ويقف منفردًا .. وتلك يظهر فيها شقيقكم وهو يرتدي جلبابًا وطاقية .. إنه يشبه أباكم .. وهذه ترون فيها حامدًا ومحمودًا وزملاء آخرين وهم في بلاد الآثار عند الأقصر، ومعهم واحد من الصعايدة، على رأسه عمامة كبيرة بيضاء .. وهذه .. وهذه .. وهذه .. أما هذا فمنديل أخيكم .. حبيبي الغالي .. انظروا إليه جيدًا .. لقد اشتراه أبوكم مع بذلة «محمود» الزرقاء .. شموا رائحته .. إن بها عطرًا نفاذًا .. هل هو عطر رجال؟ أم عطر نساء؟ من يستطيع منكم أن يميزه؟ أنا أعرف .. وكفى! ليس مهمًّا أن تعرفوا .. ليته ظل يأتي .. كنت أروي ظمئي، وأشبعت روحي وأوصلته بمن يهوى .. لا تحدقوا فيَّ هكذا .. تقولون إني أخرف وأهزي .. ليس هكذا يا أولاد .. إن داخلي يهتز ويتأثر، ويلهمني .. لأعرف وأميز وأخمن تخمينًا صائبًا .. أخوكم كان يحب .. وهل الحب عيب؟ كان فيلسوفًا حتى في الحب .. لم يذع سره لأحد، إلا لحامد الشيمي؛ ولهذا أعطاه منديل المحبوب؛ ليبعده عن عبثكم وشقاوتكم.

كان حييًّا خجولًا .. وكان يمقت أغاني الحب الباردة التي تذاع في الراديو .. كان يحب الأغاني التي لا أفهم كلماتها فهمًا جيدًا .. أنتم تفهمونها، ولكني أسمعها، وأعرف ماذا يحب منها، وماذا يكره. أليس ابني وحبيبي؟! وأنا أمه وحبيبته المخلصة؟! منديل أخيكم رد إليَّ شيئًا من الماضي، نسيته في أيام الحزن، ولم أذكره إلا عندما شممت الرائحة. سوف آخذه وأضعه في صندوقي، وأقفل عليه بمفتاحي المثبت في ضفائري، ولن يتمكن أحد منه إلا حين يعود أخوكم، وأجمعه بمن يهوى .. وأعنيى لهما حتى يلدا أولادًا وبناتًا، يملأون الدار لعبًا ومرحًا وضجيجًا وزعيقًا وعفرتة! ويلعبون على كتفي .. هل سأبقى يا أولاد حتى أرى ذلك اليوم؟ لا أدري يا أحباب .. ولكنني أطلب شيئًا واحدًا، هو أن أراه، وأدفع عمري الباقي ثمنًا لهذه الرؤية. لماذا سكتم؟ هيا تحركوا .. قلبوا الأوراق، وانظروا ما بها .. لك الله يا أم حامد .. لماذا تفتشين في أشياء حبيبي؟! أليس عندك صبر يا امرأة؟! هل جزعت سريعًا؛ لأن حامدًا تأخر عن ميعاد وصوله؟ كان الله في عوني .. إني أنتظر أيضًا، ولكني أنتظر منذ زمن بعيد، وأنتظر اثنين، وليس واحدًا .. أنتظر حامدًا ومحمودًا .. فلذة كبدي .. هوني عليك يا امرأة .. نبشت ذكريات الولدين، وتركتنا نذهب مع الزمن القديم، فنرى أشياء وأشياء .. قلبوا هذه الأوراق .. قلبي يحدثني أنها لولدي

محمود .. لماذا تتهامسون؟! هه! أتضحكون علي .. إنها لولدي .. قولوا ماذا فيها .. قولوا لي ..

- 2 -

سوف نقول لك يا أم .. واعذرينا فقد أمضنا القهر، وإن كنا نلعب أو نلهو .. فاللعب واللهو هما الرداء الممكن أن نغطي به أحزاننا .. هذه الورقة رسالة بخط ولدك محمود .. لن تفهمي شيئًا مما يقول .. ولكن ماذا نملك؟ لا شيء! لا نقرأ على أسماعك ما قاله ولدك قبل أن يودعنا، وبعد أن استمر في «عتليت» يكتب إليك بين الحين والحين كلمات قليلة متناثرة، لا تغني ولا تشبع من جوع .. ونكتب إليه كلمات قليلة .. لا تنقع الغلة ولا تروي الصدى .. وقد نكتب غدا رسالة أخرى إلى «حامد الشيمي» إذا كان حيًّا وموجودًا هناك .. ونقرأ .. لابد أن أقتنع .. سمعت رفيقًا ينشد قول عمر بن أبي ربيعة:

كتب القتل والقتال علينا   وعلى الغايات جر الذيول

فقال آخر بخبث: بل «خسر» الذيول؟ أنسيتم أننا في آخر القرن العشرين؟ وعصر الميني جيب؟

نطق ثالث قائلًا: لا يهم، ولكننا ما زلنا أحياء، نرزق بحمد الله.

رد واحد منا ضاحكًا: دعنا نحيا يا أخي .. إنك تتعجل المصائب .. المهم «خسر الذيول».

وهكذا فإن من يعش بيننا فلابد أن يسوح في عالم آخر .. لا يؤمن بتعدد الألوان، ولا تنطلي عليه لعبتها؛ فهي إما بيضاء أو سوداء .. لا ألوان وسط .. إما أن تقتل أو تقتل .. تعيش أو تموت شهيدًا .. ولا شيء بينهما.

وقد كنت في مطلع الصبا أرنو ببصري إلى العسكر الذين يدخلون الكفر، فنلتف حولهم .. لا يهم أن تعرف هويتهم: بوليسًا أو جيشًا .. كنا لا نميز الفروق الدقيقة جيدًا، وكنا نراهم أحيانًا راكبي خيل أو راجلين، فنرمح وراءهم وننشد: «يا عسكري يا بو بندقية ...»، ثم نقلدهم بأن نضع ذيول الجلاليب في فتحة الطوق، بعد أن نمررها من بين الساقين، ونركب عصا طويلة من القش، طرفها على الأرض والآخر في يدنا، ونجري على الطريق، وفي الحواري، ونغني «عسكر بندر دورية .. خشي بيتك يا ولية»، ونظل هكذا حتى نعود إلى الدار منهكين متعبين، معفرين بالتراب، ونتهالك إعياء ..

ولأني اليوم ذاهب إلى دارنا، فإني ما زلت أذكر الزمن الخالي .. وبدلًا من الجري على عصا القش، فإني أركب اليوم مدرعة، وبدلًا من

غناء «عسكر بندر دورية»، فإني أسمع أشياء عديدة عن وطني العظيم، وأم البلاد، ومصر التي في خاطري وفي فمي ..

وفي الحقيقة، فقد تشوقت إلى دارنا كثيرًا .. دار «الشيمي» .. لقد غبت عنهم أو غابوا عني زمنًا طويلًا .. لماذا؟ لست أدري! آخر مرة، ودعت فيها أمي قالت لي: لا تتأخر يا حامد .. لا تغب عنا كثيرًا .. نحن في انتظارك، وطبعت على خدي قبلة، وعلى جبيني مزيدًا من القبل .. وأمطرت عيناها، وهطل الدمع على صفحة وجهها جدولًا فياضًا .. بكيت تأثرًا وبكى إخوتي الصغار، وكل الذين كانوا في وداعي طفر الماء من أحداقهم، وارتفع نحيب امرأة من المودعين .. لقد جاءت تودعني، وتبلغني سلام ولدها في «عتليت»، ولم تقل أم «محمود» شيئًا سوى النحيب! قلت لهم جميعًا محذرًا ومودعًا، وأنا أضع قدمي في السيارة المتجهة إلى البندر:

- حذار من تكرار هذا المشهد؛ فأنا لم أمت بعد!، وإلا فلن آتي بعد ذلك أبدًا ...

كفكفوا العبارات .. وجففوا المآقي .. كأنهم حسبوا أني لن أعود أبدًا، وابتلعتني السيارة مع رجل أصر على مرافقتي حتى البندر .. رجوته بإلحاح، واستحلفته، فلم يقبل رجاء ولا عذرًا ولا يمينًا .. قال لي:

- كلما رأيتك، رأيت ولدي .. أحسست أنه بشحمه ولحمه ودمه .. «محمود» ابني مثلك تمامًا يا «حامد»، وسوف تقول غدًا إن عمك رضوان كان لا يكذب، ولا يقول سوى الحقيقة .. إننا لم نره منذ رحل ولم يعد .. ولكننا بعد أن اطمأننا عليه في « عتليت»، نعلم علم اليقين أنه معك وأنت معه.

وبدا التأثر في عينيه، وكادت تهوي قطرات منهما، ولكنها تجمدت بالمكابرة وقوة المقاومة:

- أنسيت يا «حامد» أخاك «محمودًا»؟! .. لا أظن يا ولدي؛ فأنتما قطعة لا تنفصل أبدًا ..

ورفع يديه إلى السماء في دعاء حنون ورجاء:

- اللّهم لا تفرق بينهما .. واجعلهما على الخير .. ومتعهما بالمحبة الخالصة.

واتجه إليَّ يواصل حديثه متهدجًا:

- وهكذا تراني أقوم معك .. وأسافر معك سفرًا قاصدًا لأودع «محمودا» ولدي .. اعتبرني والدك يا «حامد»، وأني «أبوك» يا «حامد».

أحسست شيئًا ما بداخلي يتحدث بصوت مسموع .. أغلقت أذني عن السماع، ولكن الصوت كان يغزوهما ..

ورافقني عم «رضوان» حتى محطة القطار .. وعم «رضوان» في هذه الأيام يجلس على المصطبة أمام الدار، ولا يتحرك إلا نادرًا .. لم يتحرك إلا اليوم؛ لأنه علم أني مسافر إلى الجهادية بعد انتهاء إجازتي .. وعم «رضوان» حزين على ولده « محمود» ومن أجله .. ولكن ماذا سأصنع لك يا عم «رضوان»؟! وددت لأفتدي محمود بن رضوان .. لو قالوا: فليذهب «حامد الشيمي» إلى «عتليت» أو «صرفند» أو «الدامون»، لذهبت يا عم رضوان .. إني أحبك كثيرًا رغم التكشيرة التي تملأ سحنتك، والقهر البادي في عينيك الدارستين .. وإني اليوم لفي شوق إليك مثل أهل دارنا جميعًا ..

كتبت إليَّ أمي رسالة فيها السلام والأشواق والسؤال عن الأحوال، وقالت إنها متعبة قليلًا، وتريد أن تراني .. ولكن عنادي جعلني أقول في سري هذه حيلة قديمة، يبكون حين أفارقهم، ويتحايلون على الزمان أن أبقى بجوارهم، ويتفننون في إغرائي بالعودة إليهم سريعًا .. إنهم قومي وأنا أعرفهم .. سامحهم الله .. أعرفهم جميعًا، وأعرف خلالهم، خاصة أمي .. عندما أعود يخضر الزمان على جبينها، وتعلو البسمة شفتيها، وتكاد تزغرد لغير ما سبب، إلا لأني بجوارهم وبجوارها هي بالذات .. وعندما غاب محمود بن عم

رضوان، ظلت تنتحب، وكادت تموت، لولا أنها كانت تثق في كلامي، وعرفت مني أن محمودًا موجود، وحي يرزق، وسوف يعود من «عتليت» في يوم ما إلى «كفر المحاريم» .. ومن يوم غيابه وهي تتلهف، وتشارك هذه المرأة أم محمود رضوان في الحزن الأبدي، وتتعزيان كل يوم منذ الصباح وحتى يقبل الليل بالحديث عنا، وفي سيرتنا .. الغائب والحاضر .. وتطلقان الزمام للخيال؛ ليعود بالغائب والحاضر معًا .. ويلتقي الغائب والحاضر، ويتزوجان ويصبحان من صفوة الرجال في الكفر، ولهما من البنين والبنات ما يملأ رسالة إضافية منه .. الاثنان طراز واحد .. طراز ليس كخلق الله المحيط بنا .. حضورهما سواء، وغيابهما مشترك.

لم لا تسكتين يا أمنا؟! هل أضناك حبس الكلام بين جناحيك؟! بالله دعينا .. لا تتثاقلي علينا؛ فقد طفح الحزن على جباهنا، وبتنا نغني ونبكي في آن .. ليس هذا عقوقًا .. أبدًا؛ فنحن أوفى من ظل السرور يا أماه .. نهيم على وجوهنا؛ هربًا من الأسى، ويحسبنا الجهلة حمقى. أليس محمود أخانا، وقطعة من روحنا وجسدنا، ويجب أن نسأل عنه كلما جاء الليل وأشرق الصباح؟ .. كان فرحة القلب الأولى – تقولين دائمًا – وكان قائدنا في اللعب والتعلم والتذكار والامتحان .. كان يأتي لنا بالحلوى والمجلات المصورة، ويحكي لنا عن المدرس الأحمق

والمعلم النشيط .. ويروي لنا نوادر الناظر السمين، الذي كانوا يلقبونه «ليستون» الشرير .. وكيف كان يضرب الطلبة بكفه الثقيلة .. منظره كان مرعبًا – يحكي أخونا – يثير الفزع في القلوب البريئة .. ملاكم هو الآخر، لكن مع الصغار .. وغاب «محمود رضوان» ابن «أبينا» وابن أمنا .. ابنك أنت .. وغاب «حامد الشيمي» هو الآخر .. ابن لك وأخ لنا .. حامد هو الرفيق الذي لم يفارقنا إلا في ساعات النوم .. أتحسبين بعدئذ أننا بلهاء، لا نشعر بالحرقة واللوعة .. إننا حزانى يا أم حتى يعودا أو يموتا .. واسمعي ما قاله ولدك في رسالته.

– 3 –

يا بني ..

تعرفني أو لا تعرفني .. أنا محمود بن رضوان .. واحد من أهالي «كفر المحاريم» مركز شربين .. عشت أيامي مسافرًا .. أسافر من مكان إلى مكان، ومن زمان إلى زمان .. يحسبني من لا يعرفني بائعًا جوالًا، مثل الباعة الذين يعيشون في القرى، ويسعون من أجل القرش والقرش، ويمشون ألف خطوة وراء المليم. وقد كنت يومًا بائعًا جوالًا، أحمل على كتفي وظهري بعض الأشياء؛ لأبيعها، وأعود منها بالرزق القليل، حامدًا لله شاكرًا، وكان أبي فرحانًا .. كم أحن إلى هذا اليوم .. وقد يظنني بعض الناس أني مهاجر من مدن القناة، تتوه عيناه

في العالم الغريب الذي يحيط به .. وقد يظن بعضهم أني «بمبوطي»، عاد إلى الشاطئ بعد أن فقد زمانه وأحلامه .. من المؤكد أنك يا ولدي تعرفني .. عذرًا إذا قلت «ولدي»؛ فأنت قريب العمر مني .. أكبرك بأعوام قليلة .. صحيح أني لم أمارس مشاعر الأبوة بالفعل، بيد أن لفظة «ولدي» تثير في نفسي مشاعر شتى وعميقة، تجعلك بعضًا مني، تحفرك أمدًا طويلًا في ذهني .. قد تفهم يا بني ما أقول، وقد لا تفهم .. أنا أعلم مقدرتك المتفتحة رغم الحداثة، والتي تتضح بتفوق مستمر رغم الصبا الباكر، وأعلم أني أحببتك لهذا الأمر، وأحسب أن صورتك بشعرك الفاحم، وعينيك المتوقدين وأنفك الصغير، وأهدابك المسبلة وفمك المتحفز وصوتك الرفيع الواثق .. صورتك هذه مطبوعة في حنايا ذاكرتي، وفي ثنايا مخيلتي .. فأنت صوت طفولتي القريبة والمحبوبة .. عندما قرأت كلماتك الخضراء، أحسست ينبوع الزمن القديم يتدفق في أعماقي .. لقد تفجرت زمزم بالخير والنماء ..

أستاذي / محمود ..

أحييك، وأتمنى أن تكون بخير .. إني أحبك، وسوف أعمل بنصحك، وأشكرك على هديتك، والسلام عليك ورحمة الله.

«أحمد بن السقا»

لم تكن كلماتك القليلة والقصيرة الأشتلة أزهارًا، ثبتت في بدني، وازدهرت في كياني، وأنارت بصيرتي في العالم المظلم .. لا عليك يا ولدي من وصفي للعالم؛ فأنت لما تزل غضًّا في العهد الأخضر .. وكل ما أتمناه لك أن تظل أبدًا ورقة خضراء في شجرة الزمن، تظلل الناس، ويستريح إليها الناس .. أتفهمين يا أم ما يقوله ولدك؟! أظنك تذكرين الأشتلة «الأرز» التي يزرعها الرجال في الغيط، وتحسبين ابنك يتكلم عنها، لكنك تعرفين من هو «أحمد» .. الفتى الذي يسبق أيامه .. أحمد ابن السقا الذي مات أبوه منذ زمان، ولا يعرف أحد بالتحديد كيف مات، أمات مقتولًا أم مقهورًا.

المؤكد أنه مات فجأة ذات يوم، وفجع الناس لموته، ولخلفه "أحمد" هذا، وأمه الفتاة المسكينة!

ضجت حارة "النحاسين" يومها بالحزن والبكاء والعويل على من مات، ومن أجل من بقي حيًّا! يومها - يا أم - خفق ولدك محمود باللوعة والحرقة مع بقية الناس .. كان "محمود" آنئذ لما يزل حدثًا .. ولأنه كان يحب الأطفال، فقد أحب الولد "أحمد بن السقا"، ألا تذكرين؟! كان يراه الولد فيقطع الحارة زاحفًا على أربع حتى يصل إليه، فيلتقطه ولدك، ويظل يلاعبه، حتى تأخذه أمه .. كبر الولد، وكبر محمود .. هذا حدث .. وهذا شاب .. وابنك يا أم محمود يحب أحمد

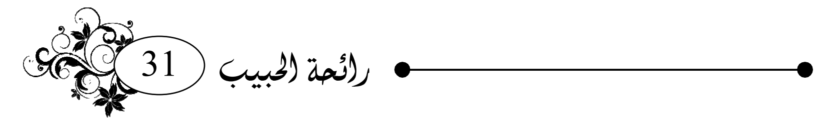
ابن السقا .. وها هو يحتفظ في أوراقه عند "حامد الشيمي" برسالة منه إلى هذا الولد "أحمد"، وتحسبينها يا أم مكتوبة إلى فتاة يحبها ولدك .. مجنونة أنت بتزويج أولادك يا امرأة .. الزواج .. الزواج شيء يثير القرف في هذا الزمان .. أف لكم يا أمهاتنا اللاتي لا يفكرن إلا في هذا السخف، والقلب يطفح الزمن الأجرب! .. ابنك كان غريبًا في كل شيء .. دعينا من هذا، واستمعي إليه وهو يكتب إلى الولد أحمد بن السقا:

"أنت يا ولدي نتاج حزن، فلا تخف من الحزنعليك .. فالزمان القادم مجهول القسمات، بيد أنك سوف تصنعه وتشارك فيه، وأنا أعرف كيف ستشارك فيه.

لست أدري يا بني كيف سيكون وقع كلماتي إليك عندما تقرؤها وتفهمها تمامًا؛ لأني لست أدري متى ستقرؤها، وكيف ستكون حالك عندئذ .. هل سيعطيك الزمان فرصة قراءتها أم لا .. بيد أني لا أريدك أن تكون مثلي ساكنًا ساكتًا أصم .. بل كن متحركًا ومتكلمًا ومفتوح العين والبصر.

وحاول أن تقرأ رسالة الإمام الغزالي "أيها الولد" ..

وختامًا لك ألف قبلة على جبينك الأغر".



"محمود بن رضوان"

أفهمت يا أم؟!، لم تفهمي شيئًا فيما نظن .. فقط عليك أن تمسكي لسانك وتعلقي منديل حبيبك على صدرك، وتنتظري عودته مع أخيه "حامد الشيمي"، يوم أن يعودا إذا عادا ..

(يناير 1972)

عودة حامد الشيمي إلى أمه

اسمي حامد الشيمي .. من كفر المحاريم مركز شربين، ومهنتي مجند بالقوات المسلحة ..

لا أستطيع أن أزعم أن لي مهنة سواها في اللحظة الراهنة .. صحيح أني كنت موظفًا صغيرًا قبل دخولي الجهادية، ولكن هزيمة البلد حتمت عليَّ أن أكون مع بقية جيلي تحت رداء العسكر .. ننام في موعد، ونصحو في موعد، ونسافر إلى ذوينا بتصريح محدد، نعود بعد انتهائه إلى الثكنات، فنلتقي أنا وزملائي وجهًا لوجه .. ونأكل ما نحمله من عند أمهاتنا .. نقتسمه سويًّا .. ملك غيري ملك لي .. وملكي ملك غيري؛ فالموت يجعل البشر يعيشون السماحة في أرقى صورها .. والحياة هنا قسمة مشتركة بالضرورة .. كل منا يخدم ذلته من خلال الآخرين .. وقد اقتنعت بذلك في يوم ما، وكان الحارة والطرقات، وتظل أمي وأم محمود رضوان تحلمان بعودة رجلين ..

لو كان أبي حيًّا لشارك الآخرين الأحلام نفسها .. قالوا لي: إنه كان شابًّا بهي الطلعة مشرق المحيا .. وكان الناس يتحدثون عنه في زمنه، فيذكرونه بالخير والطيب، رغم أنه كان فلاحًا فقيرًا، لا يملك غير

بقرة واحدة، ويؤجر فدانًا من أحد أقاربنا .. ويوم مات ضج الناس بالحزن عليه، وعلي وإخوتي أيضًا .. وتذكروه ثانية على الفور يوم مات أحمد ابن السقا، الذي مات أبوه ميتة غامضة! لكن أبي قد مات بالحمى، وقيل إنه سوء التغذية، وخلفني وإخوتي للأم ينؤبها الزمان، وتنؤبنا. وقد عاشت حتى اليوم تتمنى الفرحة الأولى منتصبة على قدمين، ولكن أني لها ذلك، وهي مازالت تنتظر! أكاد أراها تقف خلف الشباك، وتنظر إلى الطريق في جوف الليل .. تسمع دقات حذائي .. تتشمم رائحتي .. تفتح ثغرها باسمة .. تفرد ذراعيها بالفرحة .. تحتضنني .. تسألني عن أحوالي .. تقول لي: جئت سريعًا كما أردت .. أنت تحب أمك يا "حامد" .. دائمًا لا تغب عني كثيرًا يا "حامد" .. لا تعذبني .. دعني يا ولدي أفرح بك .. ثم تزف البشرى إلى آل رضوان، فيتدفقون على الدار، يسلمون ويعانقون، ويسألون عن الأحوال .. تلئتم الداران، ونسهر حتى وقت متأخر ... و ... أريدها ألا تحزن؛ فأنا قادم في الطريق .. لا تخافي عليَّ يا أم حامد .. الدنيا مظلمة، ولكن الخوف أكثر إظلامًا .. لست خائفًا أبدًا .. قلبي حديد .. وكم أتمنى أن يقابلني في جوف هذا الليل أي ذئب، فأتصارع معه .. تخافين قطاع الطريق؟ ولكني لا أخافهم .. لن يجدوا معي شيئًا يأخذونه .. سوف أستفيد بما تعلمته في الجهادية .. أطرح هذا ناحية

اليمين، والآخر ناحية الشمال، والثالث على الأرض أمامي ثم أمضي، وأتابع الطريق .. لا تهم بعض الخدوش.

لا تخافي علي .. ولكني على أية حال لم أقابل أيًّا منهم .. سوف أدكدك في جوف الليل بحذائي الثقيل؛ لتسمعي خطواتي على الطريق. لو كان أبي حيًّا لخف إليَّ ومعه حمار آل رضوان .. يقابلني ونركب معًا. سوف يحلف أن أركب ويمشي هو، وأحلف أنا أن أمشي ويركب هو، أو نحلف نحن الاثنين أن نمشي على الأرض ويسير الحمار أمامنا ولا نركب .. أو نشيله على أكتافنا مثلما فعل جحا وولده في الزمن القديم، وساعتها تضحكين يا أم "حامد"، ولم لا تضحكي الآن؟! .. اضحكي يا امرأة ..

لبيت نداء أمي بالعودة، ولكن القمر الطالع في نصف دائرة صفراء يوحشني .. تخنقه السحب السوداء .. قلبي يدق، وأمي مازالت تنتظر .. مررت في الطريق، وذهبت إلى دارنا، ولكني توقفت عند الباب .. التقطت أنفاسي وقد هدأت قليلًا .. نقرت بالسماعة إلى الباب .. لم يرد أحد .. ومرة أخرى ولم يرد أحد .. ازداد قلبي ضراوة، وأخذ يدق بعنف .. دققت بالرهبة على الباب مرة ثالثة ورابعة، ثم دقات متوالية .. وكان الصدى يجاوبني .. فجأة لمحت ضوءًا خافتًا ينبعث من خصاص الباب، وسمعت وقع خطوات تقترب .. ثم صريرًا

انفتح بعده الباب عن وجه لأخ أصغر .. أخذته الدهشة .. تعانقنا .. سألت في لهفة عن أمي .. قال: لا تنزعج؛ إنها بخير .. كانت تنتظرك حتى وقت قريب، ولكن نوبات المرض فاجأتها، فاستدعينا لها طبيبًا من البندر، وقد نامت منذ قليل. ترى أأوقظها؟! أشرت عليه بأن ينتظر، وتسللت إلى حجرتي .. خلعت حذائي، ومشيت على أطراف أصابعي إلى غرفتها، وفتحتها برفق، وتمليت وجهها الصافي وأصابع الزمان قد تركت بصماتها عليه .. أنفاسه تعلو وتهبط .. ظللت أنظر إليها .. إلى الوجه الذي شبع انتظارًا، وعدت إلى حجرتي، وخلعت ملابس العسكر .. وانتظرت أنا حتى الصباح؛ لأقول لها:

- لقد عاد "حامد الشيمي" يا أم حامد.

(أبريل 1972)

جرح الأحبة

كان كفر المحاريم يحب "حامد الشيمي"؛ لأنه كان طيبًا، وكان الناس يحترمونه ويقدرونه عندما يرونه قادمًا من الجهادية أو ذاهبًا إليها .. يرحبون به، ويدعون له بالسلامة، ثم يسألونه عن موعد الحرب والنصر، وكأنه أوتي من كل شيء علمًا .. فكان ينظر إليهم مبتسمًا، ويعزيهم بالصبر، ويمنيهم به.

ولكن الناس اليوم وقفوا أمام دار "الشيمي"، تتدلي رءوسهم على صدورهم، والصمت يقعى على الأفواه .. والكلمات النادرة لا تعدو حوقلة .. ثم تنهدات حرى، وشيئًا آخر كظيمًا!

كان الناس يذكرون "حامد الشيمي"، ويقلبون تاريخه في صمت مكتوم، منذ كان طفلًا حدثًا يحبو في حارة آل رضوان، وكانوا يذكرون أيامه تلميذًا في "شربين"، يذهب إليها مع "محمود رضوان" في الصباح، ويعودان في المساء، فيغيران ملابس المدرسة، ويلبسان الجلاليب، وينتعلان القباقيب، ويدبان بين الحقول، ومعهما كتبهما وأوراقهما يستذكران، حتى تظلم الدنيا بعد غروب الشمس، فيعودان أدراجهما ثانية.

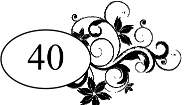
وفي نهاية الدراسة، تنطلق الزغاريد من دار "الشيمي" ودار "آل رضوان"، ويشرب الناس الورد، ويمصون الحلوى ابتهاجًا بنجاح "حامد" و"محمود" .. لم يتخلفا في أي عام من أعوام الدراسة .. بل كانا من الناجحين دائمًا، والمتفوقين أيضًا، وقد أصبحا بعد التلمذة موظفين في "البراري" .. وذهبا إلى الجهادية معًا، وغاب "محمود" في "عتليت"، أما حامد فقد ظل يغدو ويروح، ويطمئن أمه، وأم محمود رضوان. وكان الناس يفرحون بعودته إلى أمه؛ لأنها كانت تصحو من رقدة المرض، ويشتد حيلها، فتظهر في الحارة، وتتحدث إلى الجارات، وتبدو عليها علائم العافية .. وكانت تعتبر أولاد الحارة أبناءها .. والكل يناديها: أماه، وكانت تسر لذلك كثيرًا، وتفرح بمناغاة الصغار لها، وتشهق باللهفة على من يمسه سوء أو يصيبه مكروه .. إنهم أبناؤها على أية حال.

وقف الناس ينظرون إلى الأرض .. في وجه الأرض الصامت المضطرم .. لا يقوى أحد منهم على الكلام أو الحركة، إلا حديث النفس المكتوم .. إنهم يعتمدون على مخيلاتهم في الحوار بينهم وبين أنفسهم، وكان عم "رضوان" وحده، هو الذي يجلس أمام داره منفردًا .. يخرج علبة الدخان، ويلف سيجارة أثر سيجارة، ويحملق بعيدًا .. يحسبه البعض ينظر إليه، ولكنه كان ينظر إلى شيء لا يراه ..

نظره مثبت على المجهول .. من يعرف الحقيقة يشفق على عم "رضوان" .. كان الله في عونك يا رضوان .. ظللت أعوامًا لا تكلم أحدًا، وطيات وجهك بين عينيك لا تنعرج أبدًا ولا تنبسط، حتى جاءك البشير يخبرك أن ولدك محمودًا حي، ويعيش في "عتليت". يومها انفرجت عضلات وجهك، وابتسمت، ونسيت سجائرك قليلًا .. تكلمت مع أم "محمود"، وأم "حامد الشيمي"، وفرحت بعودة "حامد"، وكنت تقوم لوداعه .. وناغيت الصغار والكبار، ورحت تشتري الصحف من البندر، وتقرأ فيها أحيانًا، أو تأتي بمن يقرأ .. لقد فرحت، وملأت الدار والحارة فرحًا، وانشد حيلك من جديد .. لقد رحت تبتسم، وتحدث الناس في "الكفر" كله عن "رضوان"، الذي أصبح يبتسم ويضحك، ويقهقه في بعض الليالي!

هناك أيقن الناس أنك لابد ستظل هكذا إلى الأبد .. ولكن دوام الحال من المحال يا عم "رضوان" - وبعد سنة تقريبًا من الفرح الطارئ، ماتت أم محمود .. أم محمود ماتت .. المرأة التي فرحت بوجود ابنها حيًّا، ولكنها لم تنتظر حتى تراه .. كانت تريد له أن يأتي، وتراه ويراها، ويأكل من يدها، وتخبز له فطير الذرة، فيأكله ساخنا .. وكانت تريد له أن يتزوج، ويأتي لها بولد .. لا .. بنت فقط .. معظم أهل الدار رجال .. فلتكن بنتًا .. عروسًا صغيرة يفرحون بها، وتنضم

إلى جدتها وأمها وعمتها، وتدعم جبهتهم الرقيقة؛ حتى يصبحن حصوة في عين العدو! وكانت تريد وكانت .. وكانت .. ولكنها يا عم "رضوان" لم تستأذنك هذه المرة، وذهبت إلى غير عودة .. يبدو أنها حلفت أن تظل في انتظار .. انتظارك وانتظار ولدها .. وبقية الأبناء .. أطال الله أعماركم .. كتب علي أن تنتظر وهي في رضا تام، شرط أن تبتسم يا رضوان، وتلتقي أنت بولدها - ولدك - وتحقق أمانيها له .. ولكنك يا رضوان، نسيت كل ذلك، وعدت إلى السنوات السود .. مشدودة عضلات وجهك .. تذكرت السيجار من جديد .. أنهيت شهر العسل مع الابتسام والضحك والقهقهة والمناغاة .. مات الفرح على جبينك يا "رضوان" في ساعات الغضب ولحظات الفرح .. كنت تدخل الدار غضبان وزعلان، فترفس الأشياء بقدميك، وتخبط الأبواب بيديك، وتقذف ما تمسك به يدك إلى هنا، وإلى هناك .. وتصرخ، وتزعق وتشتم، والكل يهرب منك؛ خوفًا أو إيثارًا للسلامة، إلا أم "محمود" .. تكلمك همسًا رقيقًا، ثم تتودد .. تقرأ ما بين عينيك وتستفهم بحنان عما أغضبك .. تستل منك نزعة الانفعال .. فتسكن شيئًا فشيئًا حتى تنسى .. ثم توقد لك وابور الغاز، وتصنع لك قدحًا من الشاي الأسود المفضل لديك .. حينئذ تنسى تمامًا، ويلتئم مخك من جديد، وتحكي عن المستقبل، وعن العودة المأمولة للولد



"محمود"، وعن الاحتفال بمولد مولانا "أبي التقى" .. والعجل الذي ستذبحه قربانًا، والوفاء بالنذر على أحسن صورة .. ولكن روحك ماتت .. أم "محمود" ماتت يا "رضوان"، فماذا بقي؟! جنبك الدافئ أصبح صقيعًا باردًا وقاسيًا!

وولدك بعيد، وغريب، ولما يأت بعد!!

الحزن يلف "كفر المحاريم" وعم "رضوان"، والناس تتلظى بالأسى الذي لا يزول ولا ينتهي، وأم "حامد الشيمي" في انتظار جثمان ولدها تزغرد!! وتلطم خديها!! .. كان رأسها بلا غطاء، وشعرها منكوش، وثوب أسود يغطي بقية جسدها، ووسطها مشدود بحبل من التيل، وفي يدها عصا متخلفة عن زوجها الراحل "أبي حامد الشيمي"، أخذت تدور حول "الكفر"، وتدور .. والناس حولها يحاولون إثناءها عن السير في الطرقات، ويدعونها إلى التصبر، واحتمال الزمان، ولكنها ما كانت تعرف الناس، ولا ما يقولون .. كانوا يمرون أمام عينيها كأطياف من العالم الآخر .. أشباح باهتة الملامح والقسمات .. ما كانت – يا ولداه – تعرف أحدًا! تقف على رأس بعض الحارات .. حارات معينة .. وتهتف بصوت عال:

– سلامات يا حامد .. سلامات يا حامد .. سلامات يا ولد .. يا سيد الرجال سلامات!

وتظل تهتف بتلك الكلمات حتى يبح صوتها، وستنفد طاقتها، وتضعف قوتها، وتتخاذل، وتقع على الأرض قهرًا وكدًّا ..

تحاول النسوة أن يواسينها، ويحدبن عليها، ويرعينها حتى تفيق، ولكنها تتركهن، وتمضي بخطوات سريعة حتى تقابلها رأس حارة فتقف، وتهتف مبحوحة الصوت:

– سلامات يا حامد .. سلامات يا حامد .. سلامات يا ولد .. يا سيد الرجال سلامات!

أم "حامد الشيمي" لا تبكي .. عيناه خاليتان من الدموع! فقط تلف الكفر كله، وتندب ولدها الراحل بكلمة "سلامات" .. لم تكن تصدق أنه مات . إنه هنا .. في البلد .. يغدو ويروح .. لو كان الخبر عن "محمود رضوان" – لا قدر الله – لصدقت!؛ لأنه في عتليت، ولكنه – أي حامد – هنا .. في مصر .. يأتيها في موعد الإجازة عسكريًّا مهندمًا ووسيمًا .. كل شهر يقضي معها الأيام المعدودة ثم يمضي .. وكان يسألها دومًا عن الأحوال، ويوصيها دومًا بمواساة أم محمود رضوان؛ لأن الواجب يحتم ذلك؛ حتى يعود محمود رضوان من "عتليت"، وكانت – يا عيني – تعمل بوصيته، ولكن أم محمود ماتت أيضًا يا حامد!! .. كان يسأل عن إخوته هو .. يسأل عن حكاياهم في المدرسة والغيط والبلد .. ويحدثهم عن الحرب والنصر؛ لأنهم كانوا

يسألونه دومًا عنها! .. كان الامتعاض يبين في عينيه لسؤالهم، ولكنه كان يجيبهم بالصمت .. يسألونه:

- لماذا تسكت يا حامد؟

فتخرج الكلمات الباردة من بين فيه:

- سوف أخبركم في المرة القادمة.

- متى يعود سبع أراضينا يا حامد؟ .. يجرحه التساؤل ..

- يوم النصر إن شاء الله.

- لماذا تتكلم باقتضاب يا حامد؟

- لأني غير مستعد للكلام الآن يا أحباب ..

كنت قبل قليل تتحدث بانطلاق يا حامد، وكنت تضحك يا حامد .. "هو الذي أضحك وأبكى" ..

كان أخوه الصغير "منصور الشيمي" هو الذي يصر على أن يسأل، ويلح في السؤال، ولكن حامدًا كان يحبه، فلم يرض أن يعنفه على مضايقته له .. كان يحب إخوته جميعًا، وكانوا يحبونه، وكان "أحمد بن السقا" مثلهم بالنسبة له تمامًا.

آخر مرة سافر "حامد الشيمي" محزونًا، حضر الصلاة على "أم محمود رضوان"، وبعدها انطلق دون أن يكلم أحدًا حتى أمه! .. كلمنا يا حامد .. لا تأخذ على خاطرك يا حامد .. كلنا لها .. خالتك أم محمود ماتت .. هذا حق، ولكن أتظل حزينًا عليها إلى الأبد! .. تكلم يا حامد وانس الحزن .. لكنهم لم يكونوا عارفين لماذا كان حامد الشيمي حزينًا .. مضى وظهره إلى "الكفر" ووجهه إلى الفضاء الخالي .. تخطو نحو محط القطار، لم ينطق أبدًا .. سار وحيدًا .. تركوه وحيدًا لأنه عودهم أن لا يناقشوه أحزانه، وحمله القطار بعيدًا إلى التيه؛ حيث الرمال الصفراء، ورائحة البارود الساكت، والسكون الرهيب!

لم تأت منه رسائل إلى أمه كالعادة .. لم يكتب إليها عما في نفسه، ولا عن رغباته في المأكولات، وأحوال الدار .. زملاؤه الذين رافقوا الجثمان حتى القبر، قالوا: إنه كان طبيعيًّا .. يتحدث معنا كالعادة، ويذهب إلى المسجد للصلاة .. كان يصلي كثيرًا في وقت الراحة، وكان يقرأ القرآن فقط .. قالوا إنه كان يسأل سؤالًا واحدًا في أيامه الأخيرة، وكان يهتف به بصوت عال:

- متى تدمدم بالرعد؟ متى تدمدم بالرعد؟

ولكن رفاقه - معظمهم - لم يفهموا ماذا كان يقصد .. بيد أنه كان يجيب على نفسه:

- الله أعلم .. الله أعلم.

ثم يتركهم ويمضي للصلاة وقراءة القرآن .. واعتبروا الأمر عاديًّا، باستثناء سؤاله الغامض: "متى تدمدم بالرعد". حتى جاء فجر الأسى، فقيل إن حامدًا متعب:

- ما لك يا حامد؟

- متعب قليلًا.

- أتراك تحتاج إلى المستشفى؟

- لا .. مجرد إرهاق .. أعطوني إسبرينا وكوبًا من الشاي.

كان يضغط على لسانه .. تكاد "الآه" تنطلق من بين شفتيه، ولكنه لم يكن بمستطيع أن يلفظها .. كان يكفها؛ إيمانًا منه بأننا يجب أن نحمل أشجاننا وحدنا .. وجهه يشحب .. انهياره يزداد رغمًا عنه .. نقلوه إلى المستشفى .. هنالك اجتمع حوله الأطباء .. أدخلوه حجرة العمليات فورًا .. دقائق .. ربع ساعة .. نصف .. ساعة .. اثنتان .. القلق يستفز، والأعصاب تزداد توترًا، والحزن يغطي المآقي والجباه .. خرج طبيب بملابس الجراحة، وأعلن في ذهول: لا أمل .. مات المريض .. البقية في حياتكم .. انفجرت آبار الدموع المخزونة .. علا

النحيب، وظل الرجال يبكون، حتى كف بعضهم، ونهضوا لأداء الواجب.

عندما توقفت عربة عسكرية أمام "دار الشيمي"، تجمع الناس كلهم .. (الكفر) عن آخره .. رجال ونساء وأطفال وعجائز .. بكوا حتى طفر الدم من العيون! سأل بعض الناس: كيف مات حامد الشيمي؟

- مات وقضي الأمر!

- لا تسألوا .. فقد مات.

كان هنالك رجل يتحرك بعصبية، وكان يبكي في نواح مثل الأسد الجريح .. كان عم "رضوان" يقول لهم: دعوني أقبل ولدي. لماذا تموت أنت أيضًا يا حامد؟!

- استغفر ربك يا رجل ..

- إنه قدر.

- لماذا يا حامد؟! أنت وأم محمود في شهر واحد؟!

- آمن بالله يا رجل! الموت حق يا رضوان.

كل يداه عن الحركة .. وقع على الأرض .. وجاءت امرأة منكوشة الشعر، ترتدي ثوبًا أسود، وتشد وسطها بحزام من التيل، وفي يدها عصا متخلفة عن ميراث رجل راحل:

-حمد الله على السلامة يا ولد .. رجعت لأمك بالسلامة .. سلامات يا سيد الرجال.

بح صوتها .. اضطربت .. خارت قواها .. سقطت .. تشبثت بالتراب .. تحفر بأظفارها في الأرض .. تمرغ وجهًا في الطين .. تحاول أن تموت .. حاول الناس مواساتها، ولكن بلا جدوى .. حملوها إلى دارها، ومضى موكب الميت الراحل مهيبًا، يحفه عدد من زملائه العسكر، والناس عن بكرة أبيهم يتابعون المسيرة إلى دار النهاية! .. والكل يبكي وينتحب، ويأسى.

خرج من خلال المشهد صبي أخضر العود، جميل المحيا، يهتف باكيا:

- سلامات يا عم .. سلامات يا عم .. سلامات يا سيد الرجال ..

ومضى مع الناس يبكي .. كان اسمه "أحمد بن السقا".

وعند دار النهاية، اصطف العسكر، ورفعوا بنادقهم إلى السماء، وضغط كل منهم على زناده، فلعلع صوت البارود الساكت في مشهد

رهيب .. وتتابعت الطلقات، حتى أفرغت البنادق، ولمح الناس على البعد امرأة منكوشة الشعر، وتلبس ثوبًا أسود، وفي يدها عصا، وفي آثرها رجل مشدود الملامح، جامد القسمات .. ويجري الاثنان نحو دار النهاية.

(أكتوبر 1972)

هوامش على الرباعية
الشوق للأحباب

"مهداة إلى الرجل الذي كان يحبنا حبًّا جمًّا، ثم رحل غريبًا!"

1- صفحتان من مذكرات حامد الشيمي قبل الموت

يوم أصبحت معلمًا في البرية فرح بي الناس .. قلت لهم إني من "كفر المحاريم"، فزاد ترحيبهم بي .. معظمهم أقرباء قريتنا. سألوني عن أحبابهم فأجبت. كيف حالهم؟ وأولادهم؟ وأملاكهم؟ ومن مات؟ ومن ولد؟ ومن تزوج؟ .. قلت لهم ما أعرف .. وعدتهم بأن أنقل لهم كل ما يريدون معرفته بعد ذهابي إلى أمي يوم الخميس، وعودتي في مساء الجمعة، طيبون أنتم أهل البرية .. مثل أهلي .. فيكم واحد يشبه عم "رضوان" .. يجلس على المصطبة طول النهار، ويدخن، ويضاحك الكبار والصغار، لو شفته يا عم "رضوان" لغرت منه حقًّا، أو جلست بجانبه طول العمر .. لكن من يستطيع الإتيان بك إلى هنا؟! قلت لي: إن أقاربنا في البرية هاجروا إليها منذ زمان .. لما ضاقت الأرض مشوا في دنيا الله .. لكن يا ولدي لا تعلم عنهم شيئًا .. ذريتهم أصبحت كبيرة .. وأولادهم أكثر .. لا أعرف إلا الكبار .. سلم على عمك فلان

يا حامد، وعلى فلان، وفلان .. قال لي أسماء كثيرة، لم أعرف منها، بل لم أذكر إلا القليل. من بقي في ذاكرتي سألت عنه، وجدت البعض حيًّا، والبعض الآخر مات .. دنيا .. دنيا يموت فيها أناس، ويولد آخرون .. نسيتهم يا عم رضوان، ولكن البعد جفا .. وجهل أيضًا. في قريتنا يعرف الناس بعضهم، ويستطيع صبي بالغ أن يذكر أنساب القرية جميعًا من ناحية الأم والأب، ويؤرخون في قريتي بأيام الميلاد والموت .. حتى البهائم يحفظون تذكارتها في أذهانهم .. ولكن من يرحل ينسه الناس عندما ينقطع عن التردد عليهم أو الاتصال بهم، ولكن كبار السن يذكرونه، ويتتبعون أخباره من بعيد .. والناس هنا يصرون على استضافتي دائمًا، بل يزعلون عندما يتغلب فريق منهم على الفريق الآخر، ويأخذني المنتصر إلى داره .. وتمد المائدة، ويتلوها الشاي، ثم أحاديث عن الناس والزمان والأرض المالحة والملاحات والسمك وليالي المولد و ... و ... حتى يجن الليل، فتتلألأ نجيمات السماء، ويزدهر الصمت، ويحكم النوم عيون السمار .. إنهم طيبون .. يتألفون مع الغرباء .. وقد أحببتهم منذ أول يوم عرفتهم.

في المدرسة لقيت أبناءهم .. نظراتهم بريئة ومستغربة وحنون .. ذكرتني بأمي وإخوتي، خاصة هذا العفريت "منصور"، لكنهم ليسوا

مشاكسين مثله، وكان (هنا سطر غير واضح وتصعب قراءته في المذكرات)

قال الولد:

- أستاذ: هل بلدكم أكبر من بلدنا؟

- نعم.

- ومن يغلب الآخر: نحن أم أنتم؟

- نحن طبعًا.

استنكر الفتى إجابتي، ورفع قبضته إلى أعلى، وصاح:

- بلادنا ضربت كل البلاد حولها .. ركبوا القوارب، وأخذوا النبابيت، ونزلوا البلد التي بجوارنا، وبطحوا كل أهلها، وأسالوا دمهم، وعادوا سالمين ..

أتريد لبلدكم أن تغلب بلدنا؟

لم أتمالك نفسي، وأخذت أضحك بصوت عال، وكلمته ضاحكًا:

- بلدنا تركب الحمير .. وليس لديكم إلا القوارب .. نستطيع أن نأتي إليكم في كل وقت، ولن تقدروا على الوصول إلينا في كل وقت.

احمر وجه الفتى، وبان الحزن في عينيه، ورد مقهورًا:

- لكننا نستطيع أن نغلبكم ..

كان التلاميذ يترقبون نتيجة الحوار في تحفز وتحيز لبلدهم .. وقلت للفتى - أحاول أن أطيب خاطره ومغيرًا من لهجتي:

- كلنا نعيش في وطن واحد .. فاهم؟

- نعم.

- هل نتعارك معًا أم نتعارك مع اليهود؟

- مع اليهود يا أستاذ.

- لماذا؟

- لأنهم هزمونا.

- اجلس ..

جلس الفتى .. انبسطت أساريره رويدًا رويدًا حتى انتهى الدرس .. في الليل أويت إلى مضجعي .. تذكرت ما جرى في هذا اليوم من أوله إلى آخره .. ارتسم في ذهني منظر الساقية التي تدور أمام باب المدرسة، ويقف التلاميذ في طابور الصباح على مدارها، ويهتفون للوطن ... ألح عليَّ حوار الفتى المتعصب لبلدته المنتصرة على جيرانها .. ظلت ملامحه تتجسم في مخيلتي مليئة بالبراءة والاستغراب

والحنان، ومعها طيف أخي "منصور" .. العفريت. وهاأنذا بعد سنين وكلما هممت بارتداء لباس العسكر، تذكرت هذا اليوم، وذلك الولد، وتلك البلد.

الشوق للأحباب
2- العودة إلى المصطبة

صمتًا عاد إلى المصطبة .. نظرة عينيه الذاهلة تمسح الأفق البعيد .. لفافة الدخان تحترق بين أصابعه، ويتخلف عنها هذا الخيط الرفيع من السحاب الرمادي، ويده تغدو وتروح بين شفتيه، وركبته ممسكة باللفافة .. قدرك يا رضوان أن تجلس بالصمت والانتظار على المصطبة الأزلية أمام الدار .. يمر عليك الناس صغارًا وكبارًا، رجالًا ونساء، وأنت تبحلق فيهم دون أن تدري .. يفوت عليك سرب من البنات الناهدات، وهن يحملن الجرار، يتفجر عطاء الحياة من عيونهن، ويبتسم للزمان الآن في غير كلفة ولا تعقيد .. يحسبنك تترصدهن؟! أتصدق ذلك؟! نعم يحسبنك تترصدهن!! تحاول جريئة منهن أن تغازلك يا رضوان؛ لتقطع عليك الصمت الحزين العشش على جبينك .. ولكن يا "رضوان" تسرح بعيدًا .. تسرح إلى "عتليت" .. لو كان محمود معي، كنت أنلته واحدة منهن .. وضحكت معها في براءة الأب الحنون، وأخذت منها ابنها .. ابنك يا محمود، ولعبت معه، وضممته إلى صدري، وبسته في شفتيه ووجنتيه، وطرت به إلى السماء، وخفت عليه من الهواء .. وما كنت مثل الآن ساكنًا وصامتًا كالبقرة

العجوز، أوشكت على المـوت .. يضحك عليَّ البنات ويتغامزن: شوفي عمك رضوان يا بنت .. قاعد طول النهار يبحلق في الرائح والغادي .. لا يشغله إلا تعفير السجائر .. ابنه غائب من زمان .. إنه زعلان يا عيني ..

أفق يا رضوان .. قل لهم كلمة .. ازجرهم .. أو اضحك معهن على الأقل .. زهرات الحياة الدنيا، ولكن الصمت.! الصمت زينة الموقف! جرحك يا حامد لم يزل ينز، لم يلتئم بعد .. آه يا حامد .. يا حبيبي .. اسمك مكتوب على جبيني .. مثل الوشم على صدغي، وظاهر يدي .. يأتي إليَّ أخوك منصور، فأقعده معي .. اسمع يا بني، أحكي له:

كان في بلدنا رجل اسمه "أبو سنة" الفلاح .. له أربع بنات .. كل واحدة مثل القمر .. تبارك الخلاق، وفي يوم من الأيام جاء إلى البلد أفندية شباب .. كانوا قادمين من البندر، يريدون اللهو واللعب .. قالوا نريد أن نركب جمالًا وحميرًا، ونلف حول البلد، ونتفرج على أهلها. ولما ركبوا أخذوا يصفرون ويطبلون .. تفرج عليهم الناس ومشوا وراءهم .. ولكنهم وقفوا عند دار "أبي سنة" لما رأوا بناته الجميلات .. هاموا بهن، وأبدوا إعجابهن .. أتوا من الأفعال والأقوال ما يتنافى مع الود والوفاء .. وكان ما كان .. علم "أبو سنة" بالموضوع،

فترك الغيط والمحراث والبهائم، وسحب معه فأسًا ونبوتًا، حتى وصل إلى الدار، والتقى بالأفندية وجهًا لوجه .. عتب عليهم، وطلب منهم أن يبرحوا البلد ويغادروا الديار .. ولكنهم تمادوا يا ولدي في الغي والضلال .. وهنا شمر "أبو سنة" عن ساعديه، وحزم وسطه بجلبابه، وأمسك بنبوته الغليظ، وبدأ باسم الله، وزعق صائحًا:

- الحقوني يا خلق الله ..

ثم هوى على رأس أولهم، وتوالت الضربات، وثار الهرج والمرج .. وتجاوبت الصيحات:

- لاحقك يا ولد ..

أتى رجال البلد من كل مكان .. في أيديهم العصي والنبابيت .. وأطاحوا بالفساق، وطاردوهم بعد معركة عنيفة، أسالوا خلالها دم أناس كثيرين .. منهم عمك "أبي سنة" نفسه .. ما زال أثر الجرح واضحًا في جبهته. اذهب إليه يا منصور، واسأله عن الحكاية، سيقول لك كيف تغلب عليه واحد منهم، وكان هذا طويلًا .. رفعه إلى أعلى، وهوى به على الأرض .. ولكن "أبا سنة" لم يفرط في نبوته، فضرب الأفندي على سيقانه الطويلة حتى وقع على الأرض .. وقام عليه أبو

سنة، وسواه ضربًا، ومسح جبهته الدامية في قميص الأفندي؛ نكاية به.

أخوك حامد - الله يرحمه - كان يعرف الموضوع من أوله يا منصور .. نسيت أشياء كثيرة .. الله يرحمه .. كان يذكر كل شيء .. لكنه ذهب يا منصور مع أم محمود في شهر واحد، ومن قبلهما تركنا محمود، وغاب في عتليت .. آه يا ولدي! .. حدثني عن أمك يا منصور .. كيف حالها الآن؟ لا أحب أن أراها .. لطف الله بها .. إخوتك يا منصور .. ماذا يعملون؟ وكيف حالهم؟ أحبك يا منصور؛ لأن عينيك هما عينا حامد .. لا تفارقني يا ولدي .. اجلس بجانبي دائمًا .. لا تفارقني .. لا ..

يرفع رضوان رأسه، فيجد طابور الظباء رائحًا غاديًا .. زهرات الحياة الدنيا يتغامزن عليه، ويتضاحكن .. تغازله واحدة منهن بجرأة:

- تتزوجني يا جدي؟ وتضحك الفتيات ..

ولكنه يا عيني لا يتكلم .. سيجارته من يده إلى فمه .. ومن فمه إلى يده إلى ركبته .. وكبار الناس وصغارهم، رجالًا ونساء، يمرون

عليك، فيلقون بالسلام والتحية، ولا ينتظرون ردًّا؛ لأنهم أعرف بحالك يا رضوان .. عيونهم تمتلئ بالشفقة والأسى المبهم .. ولكنهم لا يستطيعون أن يغيروا من الأمر شيئًا ..

3- موكب الدراويش

يحتفلون في البلد كل عام بمولده .. ويبعثون الرسل إلى البلدان المجاورة؛ لتأتي كل بلدة بمواكبها السيارة .. وينادي المنادي:

- يا أهل البلد .. يكون في معلومكم أن مولد سيدي "أبو التقى" يوم الخميس .. وكل عام وأنتم بخير.

يخرج الصغار وراء المنادي، ويلتفون حوله .. يتصايحون ويتهللون، فرحين بالمولد ولحمة المولد وحمص المولد وخيرات المولد .. يقف المنادي وحوله الصغار، يدق على طبله الكبير .. تزين رأسه قماشة خضراء، لفها على طاقيته .. وأكف الصغار توقع على دقات الطبل .. ويسيرون وراء المنادي حتى يخرج إلى مدخل القرية، وهناك ينصرفون ..

في يوم المولد يخرج المنادي برأسه الخضراء وطبله الكبير؛ لاستقبال المواكب القادمة من البلدان المجاورة .. ويقود الدراويش وراءه؛ حتى يدخل بهم إلى ساحة المولد أمام المسجد .. وهنا ترتفع الدقات والصيحات والأغاني والأهازيج .. ويظل الحال هكذا حتى يأتي المساء، فتخرج نسوة بلدتنا وعلى رءوسهن الصواني العامرة بالفت واللحم والكباب على طريقتنا. يتجمع الكبار والصغار، ويأكل

الجميع باسم الله. وبعد الأكل، يتفرقون للراحة .. يعودون بعدها للسهرة مع المنشد الشهير الذي قدم من محافظة أخرى، ومعه بطانته المسلحة بالإيمان .. وأمام الميكرفون يفتتحون السهرة بتلاوة آي الذكر الحكيم، ثم يبدأ المنشد في تقديم القصائد والتواشيح النبوية .. تساعده بطانته وآلاتها الموسيقية .. وفي الليل يصفو الجو، ويحلو الطرب .. وأشياء أخرى .. ويظل الإنشاد حتى مطلع الفجر .. وفي الصباح يوزع الخبز المأدوم على الأضياف والفقراء .. ويستعد الجميع للموكب الكبير، الذي يلف بالبلدة كلها، وينتهي بصلاة الجمعة ..

وقبل أن يقترب الموكب الكبير من نهايته، ويصل إلى المسجد لصلاة الجمعة، يفاجأ الناس بامرأة منكوشة الشعر .. تربط وسطها بحبل من التيل، وتصفق على إيقاع الطبول، وتأخذ سيفًا من أحد الذاكرين، وتتمايل به كما يتمايلون، وتهتف كما يهتفون: الله حي .. الله حي ..

حاول الغرباء أن يبعدوها عن الموكب .. ولكنهم لم يستطيعوا .. رآها أهل البلد .. قالوا للغرباء: دعوها .. فإنها ولية .. لم أسمع أحدًا .. ولم تدر – يا ولداه – بما يقولون .. كانت تهتف من حين لحين: الله حي .. ليتك يا حامد حي.

– أم حامد الشيمي؟

- نعم .. أم حامد الشيمي .. تذكر الله .. وتذكر حامد ..

- لم تنس.

- إنه ضناها .. كيف تنساه؟!

- لطف الله بها.

- متى تفيق؟ .. المصيبة حارقة!

- ربنا يلطف.

- كان ولدًا طيبًا.

- وكان زين الشباب.

- من يقدر على أن يخرجها من الموكب؟

- لا أحد.

- لن تخرج إلا بعد انتهاء الموكب.

وصل الموكب إلى المسجد .. أسند الدراويش طبولهم وسيوفهم ومزاميرهم إلى حيطان المسجد، ودخلوا الصلاة .. ولم ترحل أم حامد من مكانها .. ظلت واقفة، وراحت تغني أغنية قديمة كانت تحفظها في أيام شبابها:

زروني كل سنة مرة .. حرام تنسوني بالمرة ..

كان صوتها يتدحرج بالحروف كما الكرة .. والناس في قلب المسجد يستمعون للقرآن والخطبة ويقيمون الصلاة .. ومازال صوت المرأة منكوشة الشعر يتدحرج كما الكرة.

انتهت الصلاة، وخرج الناس، وأخد الدراويش معداتهم، وفوجئوا بأم حامد الشيمي تأخذ من أحدهم سيفه، وتقبض عليه .. حاولوا أن يأخذوه بالإقناع .. ما عرفوا .. بالقوة ما استطاعوا .. وكانت تغني أغنيتها القديمة .. زروني كل سنة مرة .. حرام تنسوني بالمرة.

استسلموا أمامها . . انسحبوا بمعداتهم .. واندفعوا خارجين، والصغار تشيع موكبهم الجرار .. وكانت أم حامد تمضي وراءهم أيضًا، وتسأل عن ولدها منصور الشيمي؛ لتعطيه السيف .. وظلت تغني وتسأل عنه .. حتى غاب الموكب في الأفق البعيد .. ورجعت إلى البلدة تحمل السيف، وتتمايل به كما الدراويش .. وصلت إلى حارة الشيمي .. كان عم رضوان يجلس على رأس الحارة .. السيجارة في يده، وجبهته معقودة بالصمت الرهيب .. فغر فاه .. فتح عينيه .. لم ينطلق .. وأم حامد تدخل إلى الحارة وتتمايل بالسيف .. وتسأل عن

منصور وأحمد بن السقا .. وتحكي للأطفال عن حامد زين الشباب وسيد الرجال.

(مارس 1973)

سهرة مع حامد الشيمي

كان الليل ساجيًا، والأفق الرمادي معبأ بالبرد، والسماء يقظة العيون، رغم جهامتها المتوحشة .. والصمت من حولي يغطي الدنيا كلها .. لم أسمع سوى دبابات الرفاق وهم يتحركون على بعد بعيد .. سعلة من هنا تأتي أو هناك .. الملابس الثقيلة مع قدح من الشاي الساخن جدًّا يجعلان الليل يمضي بسهولة .. يتحول الليل إلى نهار دون ضوء .. الأرض رطبة، ورائحة الهواء المشبع بالندى تملأ الخياشيم .. والعيون في الظلام تحدق كثيرًا، وترى أشياء أكثر .. رائحة السلاح لها طعم مميز .. ومعدن الخزائن والرصاص يفرض نفسه بذات الرائحة .. عندما يصبح الليل سخيًّا بالصمت، فإن المرء يتشوق لمن يحادثه ويتكلم معه أي كلام . يعيد قصة حياته .. يحكي عن زوجته التي تنتظره دومًا .. أو يروي قصة غرامه قبل الزواج .. أو قصة حبي .. ومنهم من يقول قصة «حزني» على رأي شاعر .. قد تصبح الرواية مسلية أو مثيرة للأسى .. وعندما لا تجد من تحادثه، فلا مفر من سماع الترانزستور .. غير مسموح به في أثناء الخدمة .. ولكن ما العمل، والصمت أشد قسوة في جوف الليل؟! ومع ذلك، فإن المرء قد لا يجد أي إذاعة تهدر بالحديث أو الغناء .. ثمة أصوات أجنبية فقط، ولكني

لا أعرف إلا لغة واحدة .. لا أفهمها إلا قراءة فقط .. «كول كاهير» .. تعني صوت القاهرة باللغة اليهودية .. إذاعة فرنسية .. إنجليزية .. ألمانية .. ألبانيا: هنا تيرانا .. ولكن صوتها يغيب مع تردد الموجات الهوائية ثم يعود ثانية .. لا فائدة .. الساعة اقتربت من الثالثة والنصف .. الفجر يوشك على الطلوع .. بعد قليل أعود إلى الترانزستور .. يتحرك المؤشر على محطة القرآن الكريم .. صفير .. صفير .. ثم صفير يعقبه صمت .. ينطق الجهاز الأخرس بعد لاي .. إذاعة القرآن الكريم من القاهرة تحييكم .. أيها السادة والسيدات .. سلام الله عليكم ورحمته بركاته .. نلتقي بكم على موجات طولها .. الميكرفون ينتقل إلى مسجد مولانا الإمام الحسين؛ لإذاعة صلاة الفجر .. الصوت العذب الجميل ينساب مع هدأة السحر .. سورة الفتح تتوهج على ألسنة القراء .. «يد الله فوق أيديهم» يعيد القارئ ويستعيد .. ترتفع صيحات التكبير .. تعلو وتعلو؛ استحسانًا وابتهاجًا .. القراءة متصلة والدعاء موصول .. هبطت جهامة السماء .. راق سطحها فجأة .. رأيت عيونها الوديعة تبرق بحب كبير .. ما أكثر العيون في السماء! .. الأفق الرمادي يتحول إلى بياض شفاف .. صوت حبيبي يأتي من بعيد .. يقترب شيئًا فشيئًا .. أليف هو صوت حبيبي، كماء النهر ينساب في جلال ورهبة وخشوع .. لم أر وجهه ..

كانت هنالك هالة شمعية تغطيه .. رأيته شامخًا يتقدم بخطاه العسكرية المتزنة نحوي .. ظهر وجهه الصبوح .. جبهته سامقة .. عيناه واثقتان رغم الليل .. ملامحه مبتهجة .. اقترب مني .. عانقني وعانقته .. قبلني وقبلته .. كانت الدموع نهرًا من لؤلؤ .. ألجمتنا الفرحة .. ظللنا متعانقين والمطر يهطل من العيون مدرارًا .. كان الترانزستور في جيبي .. جيب معطفي .. يحمل صوت القارئ عذبًا جميلًا .. يردد ويعيد ويستعيد: «يد الله فوق أيديهم».

لم أستطع أن أكلمه، ولا قدرت على مناغاته .. تركت له نفسي .. قطع الصمت بكلماته الغائبة منذ زمان.

- لم تسأل عني، وجئت لأسأل عنك.

لم أرد على كلماته؛ لأن دموعي كانت تيارًا لا ينقطع؛ فمنذ سنة وأنت بعيد يا حامد .. جرح الأحبة ما زال غائرًا في الأعماق .. رحلت عنا دون وداع .. يومها بكينا .. حتى لو يبق في نهر الدموع بكاء .. ولعلع صوت الرصاص على قبرك يحييك .. وأسدل الصمت ستاره الكثيف .. كنت حبة العين وشقيق الروح، ويوم رجع محمود رضوان من عتليت، عرفت أنك فقدت نصفك .. نصف العمر .. نصف الأحبة .. نصف الأهل والخلان .. نصف الحياة .. احترمت مشاعرك

من يومها .. وكنت أعلم كل شيء عن أيامك الأخيرة بيننا، ولم أجرح صمتك المهيب حتى غادرتنا إلى غير عودة.

- لم لا ترد؟! قلت لك جئت لأسأل عنك لأنك لم تسأل عني.

وازداد فيضان النهر في عيني، ولم أستطع له منعًا .. شهقات البكاء وزفراته ألجمتني تمامًا يا حامد .. وهاأنت تزيد الفيضان بسؤلك عني .. ربت على كتفي، ثم أجلسني، وبجانبي جلس يتحدث:

- كفكف عبراتك يا رجل .. لا .. لا .. ليس ذلك طبعنا .. نحن نموت صامتين، أم أنك نسيت؟

أعرف أنك مت بالصمت يا حامد .. ولكن إلى متى نظل نموت صامتين قبل أن يسمع الناس شهقتنا الأخيرة؟! بدون أن يسمعوا الشهقة الأخيرة تكون الخسارة أكبر وأفدح .. ما زلت ملتزمًا بالصمت يا حامد .. رغم أنك كنت تحلم بالكثير خلال الصمت لتنفذه فعلًا أكيدًا .. هاأنت لا تخرج عن طبيعتك أبدًا، وتحدثني عن الموت صمتًا .. تربت على ظهري، وأحاول أن أنطق، لكن الفيضان ما زال عاتيًا:

- لم لا تحدثني عن أمي؟! أم تراك تهرب مني؟! هل هي بخير؟ حدثني ..

قلت جاهدًا:

- نعم بخير.

- كلمني عنها كثيرًا .. أريد أن أسمع صوتها.

- انتظر قليلًا يا حامد .. انتظر حتى أهدأ ..

رحل حامد الشيمي عنا دون إنذار سابق .. كان جادًّا .. لم يتفوه بكلمة صفار أبدًا .. حفظ رفاقه يوم مات عبارة كان يرددها ولم يفهموها حينئذ .. كان يقول: متى تدمدم بالرعد؟! أي رعد وأي دمدمة؟! ومن هي المعنية بتلك الدمدمة وذلك الرعد؟! كل بقاياك في القلب محفورة يا حامد .. ما زالت أمك تحتفظ بأشيائك وأشياء محمود بن رضوان .. على فكرة محمود عاد يا حامد .. رجع من عتليت بعد السنوات السود، ولكنه رجع ولم يجدك .. كان يحلم بأن يجلس معك، ويسافر معك إلى البراري؛ لزيارة أهلها الطيبين .. ولكنه قرر ألا يذهب وحده أبدًا .. أمك يا حامد رفضت أن تعطيه أشياءه؛ لأنها مع أشيائك .. لم تشفع له عودته رغم فرحتها الجنونية به .. لقد سألته عنك .. تصور؟! ما زال شلال النهر يتدفق في عيني .. هل أقول لك ابتعد عني يا حامد؟ لا .. لا .. ابق .. أنت حبيبي وصديقي ورفيق السلاح منذ أعوام ستة .. شربنا المر حتى رفضنا المر ..

- هل ترفض أن تحدثني؟

- لا يا حامد ..

- إذًا لماذا لا تحدثني عن أمي؟

- أمك بخير يا حامد ..

كيف صحتها إذًا؟

- لقد شفيت بعد الحرب .. وقالت إنك زرتها في المنام، وقلت لها إنك عريس جديد، والحور العين ينتظرن قدومها لتتفرج على أول فرحة ..

- أحقًّا قالت ذلك؟

صدقني .. كنت في تصريح قصير منذ أيام .. قابلت كل الناس في كفر المحاريم، وزاروني جميعًا، ومن بينهم أمك يا حامد .. سألتني عنك، وروت لي منامها .. وزغردت من أجلي كما فعل بقية النسوة في القرية.

- وما أخبار عم رضوان؟

- إنه مبتهج يا حامد .. صوته أكثر انطلاقًا .. لا تكشيرة على وجهه الآن .. إنه فرحان بعودة محمود من «عتليت».

- كم كان في نفسي أن أعيده من هنالك بنفسي .. أقتحم سجن عتليت وأفرج عنه وعن كل الرفاق .. آه .. لكم أنا حزين لأنني لم أشترك في العبور .. إني حزين ..

- أنت بطل يا حامد ..

أخذته رعدة .. أحسست أساه .. لزمت الصمت .. كان صوت القارئ عذبًا جميلًا لا يزال .. «محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم» .. الفجر يلوح في الأفق أكثر بياضًا، وعيون السماء تتوهج بالضياء، والندى يملأ الجو الطري .. سمعت صوته رقيقًا وحالمًا وأسوانا:

- لم أكن بطلًا .. لا لم أكن بطلًا .. لقد مت قبل العاشر من رمضان ... و ...

اختنق صوته بغصة البكاء .. تكسرت كلماته بالنشيج .. وهج الحزن يلف صوته بسياط الزمن القديم .. كان يحاول جاهدًا أن ينطق ويعبر عن مكنونه، ولكنه فشل .. سألني بعدئذ عن الفتى أحمد بن السقا، فقلت له: إنه بخير، وهو الآن في الإعدادي، ومن متطوعي الدفاع المدني، ويحلم بأن يدخل الفنية العسكرية أو الكلية الحربية ..

- هل هو قوي في الرياضيات؟

- نعم يا حامد .. إنه ليس قويًّا فحسب، بل إنه ممتاز، ويحصل عل أعلى الدرجات .. ردت إلى حامد الروح .. فرح بهذه الأخبار؛ لأن تلميذه قوي وممتاز، وبه كان يفخر، وكان يحبه كثيرًا .. سألني حامد عن أمه ثانية .. هل تراها بخير؟ إني قلق من أجلها .. حدثني عنها .. نداء الأم يا حامد واحة غناء .. ولكنك في واحة الخلود البادي .. واحة أغنى .. كانت تعصب رأسها، وتحزم خصرها، وتترجل بسيف خشبي وراء الدراويش، وتسأل .. وعم رضوان كان جهمًا بائسًا وحزينًا .. أين أنت يا عم رضوان؟

سأل حامد الشيمي - قلت له:

- يعيش أزهى أيامه يا حامد .. بدأ يتكلم على مصطبته، ويستقبل العسكر بالأحضان، وكان يمازحهم، ويقول لهم إنه سيأخذ نبُّوته ويعبر وراءهم إلى سيناء، ولن يقف إلا عند قبة الصخرة، فيصلي ركعتين في الجامع الأقصى، ويقرأ الفاتحة على أرواح الأنبياء الذين قتلهم اليهود، ويتفرج على حائط المبكى، ويجلس أمامه، ويخرج علبة الدخان ويلف السيجارة .. اثنتين .. ثلاثة .. حسب الظروف .. ثم يعود إلى المصطبة .. هنا ابتسم حامد الشيمي وسأل ثانية:

- أين أنت يا عم رضوان؟ والله واحشني .. والوحشة طالت ..

واصلت كلامي:

- وكان العسكر يمازحون عمك رضوان، ويسمون نبُّوته «سام 6» .. على فكرة يا حامد: عمك رضوان أصبح يشتري الجرائد كل يوم، ويقلب فيها، ويأتي بأهل الحارة؛ ليسمعوا الأخبار، ويتفرجوا على صور العسكر والأسرى والطيارات والدبابات.

فجأة قاطعني حامد .. سأل عن محمود ثانية:

- هل رأيته؟

- نعم .. رأيته، وهو لا يستطيع الكلام عندما يذكرونك أمامه.

وفاجأني ثانية:

- هل شفيت زينب فتحي؟ أم ماتت؟

استغربت سؤاله .. قلت في نفسي: ما زال حامد يحلم بأن يكون عريسًا، وعندما رأى دهشتي باغتني قائلًا:

- عندي حور عين .. أجمل من كل نساء الأرض، ولكني أسأل عنها بحق صداقة قديمة، فهل لك أن تخبرني؟

كانت صبية جميلة ومليحة .. في العشرين إلا قليلًا .. وعلى وجنتيها يزدهر التفاح .. وفي عينيها نضرة الحلم الأزرق الرقراق .. وعلى

جبينها يرتسم الزمان الهادئ الوقور الموشى بلمسة أسى قديم. قال الناس إنها كانت تحب حامد الشيمي حبًّا جمًّا في صمت بليغ. ويوم عاد حامد جسدًا ملفوفًا في علم الوطن، ازدادت لمسة الأسى .. تكاثفت .. انطفأت فيها زهرة الزمن الفرحان .. وظلت تدوي حتى كادت تهلك .. ويوم عدت إلى القرية بعد حرب رمضان، رأيتها تزدهر من جديد .. وتورق الخضرة على محياها .. وظلت ابتسامة خجول ترتسم على وجهها النامي من جديد.

عندما فت على دراهم، حيتني بخشوع، ودعت لي بسلامة .. هزتني محنتها منذ مات حامد .. أكثر من طبيب وأكثر من دواء، والشافي هو الله .. بدأت تزهر من جديد .. همس لي بذلك أحد الأقارب عندما زارني في الإجازة .. لم أعلق بشيء .. وها هو حامد يعيد الهمس بصوت عال .. ولكن ألا تعرفون أخبار الموتى يا حامد؟

قلت له:

- إنها طيبة يا حامد.

- ما زالت مريضة؟

- أفضل من ذي قبل .. وفي طريقها إلى الشفاء الكامل ..

- سلم عليها .. أمانة .. السلام أمانة .. وتأثرت لكلماته الأخيرة .. وازداد تأثري عندما نظرت أمامي لأرى ملامحه فلم أجده .. فجأة رحل عني .. بكيت ثانية .. وسحت من عيني الدموع .. كنت محتاجًا لسهرة الدموع؛ لأصفي حسابًا قديمًا .. وأسعد بلحظة مع حامد .. ناديت عليه فلم يرد .. هتفت بكل عزمي .. لم أسمع إلا الصدى .. أين أنت يا حامد؟ ردد التيه سؤالي .. بلل المطر الهابط من عيني سترتي .. استدرت خلفي .. رأيت الفجر يشعشع والشفق الوردي يكسو الأفق الشرقي من بعيد .. كان الندى يعلو ملابسي، ويغطيها بطبقة بيضاء شفافة .. شممت رائحة سلاحي وذخيرتي .. استبانت وجوه زملائي .. فبدأنا نتبادل تحية الصباح، ولكنني كنت عاجزًا عن الرد .. فقد ظل حامد الشيمي يملأ مخيلتي بصورته وصوته وروحه ووصيته الأخيرة: سلم عليها .. أمانة .. السلام أمانة.

وسوف أسلم عليها، وأسلم الأمانة؛ لأن السلام أمانة.

(ديسمبر 1973م)

العروس ذات الثوب الأخضر

(1)

قالت الأم المشوقة إلى لحظة فرح لابنها، الذي بلغ سن الشباب والرجولة منذ زمن بعيد:

- آن لي أن أراك مع عروسك فرحانًا ريانًا .. وشهقت عيناها بفرحة التمني، وراحت مع الصمت في مناجاة خاشعة.

كان لها من البنين أحد عشر ليس بينهم فتاة، وكانوا كإخوة يوسف قرة العين وبهجة الفؤاد، تحوطهم الشمس، ويحتضنهم القمر .. ماتوا جميعًا بعد مولدهم بسنين أو شهور قليلة، ولم يبق سواه مغمورًا بالدلال والحظوة والأمل.

يوم ولد دقت الطبول الفرحانة في أرجاء القرية، وقال الناس آن للحزينة أن تفرح، وللثكلى أن تغير ثوب الحداد، وتوالت الوفود على الدار، تهنئ بميلاد القادم الجديد، وقالوا للرجل الوالد داعين: في عزك ينمو يترعرع ويتربى .. وللأم الوالدة، مهنئين: حمد الله بالسلامة، في خيرك يعيش وبه تفرحين .. وأكلوا الأرز باللبن، وأطلقوا البخور، وعلقوا الأحجبة وعقود الفول النابت، ووزعوا

أكياس الحمص والحلوى. وفي نهاية الأسبوع الأول، حضر كل قراء القرآن، وتناولوا اللحم والثريد، وظلوا يقرعون حتى مطلع الفجر .. ومع أن هذه المرة كان لها طعم آخر، فلم تنسها الأم، وكانت تذكرها بكل التفاصيل، وعندما كانت ترويها كان الوالد يصدقها مؤمنًا ومتذكرًا، وتعلو البسمة شفتيه، كرقصة خاطفة في شريط سينما يدور بسرعة.

(2)

ذات يوم قال الرجل الوالد للزوجة الأم:

- لا أعرف هل سيكتب لي أن أبقى حتى أرى هذا الولد في زفة العرس، أم سأذهب قبل أن أرى شيئًا؟

وخفق قلب المرأة، وأحست أنها تشد شعرها في سخط أمام الزمان .. لم تستطع أن تجيب الرجل، ولكنها كانت تتخيل موت الرجل، وحالها بعده، وولدها في الزفة بغير أبيه. الولد ورفاقه يسيرون به في الزفة .. يدقون طبلًا، ويصفقون بأيديهم، ويغنون بحناجرهم. والموسيقى النحاسية تعزف ألحان الفرح المميزة في مدخل القرية .. تتجه الجوقة إلى الدار - دار العريس - وينتصب الناس على أقدامهم

في سهر حتى الصباح، يسمعون الألحان، ويشاهدون الألعاب التمثيلية في سرور عظيم.

ولما مات الرجل الوالد، تذكرت المرأة كلامه، وقالت في نفسها: عندما يكبر هذا الولد، سأشارك في زفته وأزغرد وأرقص أمامه بالعصا، وأقبله في جبينه، وآخذه مع عروسه، وأدخلهما حجرتهما، وأقول لهما:

- اصبحا على خير.

(3)

كان الولد شابًا وسيمًا، حسن الطلعة، جميل المحيا، تبدو في سيماه علائم الرجولة، وملامحه تشي بالفتوة .. ولما دخل الجندية عرف أن دخوله كان وفاء لنذر قطعته أمه على نفسها يوم ولد، وأكدته بعد أن عاش أكثر من عمر إخوته ..

وداعب خياله ذات يوم منظر فتاة تتأبط ذراع فتى في أحد شوارع المدينة الكبيرة، فتمنى أن يكون له فتاة جميلة ورقيقة، وحدث نفسه أن يقول لأمه عما رأى، وما يدور في خياله .. ولكنه - يا عيني - يوم رجع إلى أمه كان كسيرًا وحزينًا؛ لأنها كانت مريضة .. فبكى ولم يقل

لها شيئًا .. وجد عندها قصاصات من الصحف، تضم عرائس في ثياب العرس .. تفحصها في صمت، ووضعها في مكانها ثانية ومضى.

(4)

يوم قامت الحرب، تذكر أن إخوته الذين سبقوا إلى عالم الخلود صغارًا، كان ينبغي أن يعيشوا حتى اليوم .. كان سيبقى واحد منهم مع أبيه .. لا .. مع أمه؛ لأن الرجل قد مات .. وكان الآخرون سيوزعون على كافة الأسلحة، ويقاتلون، ولكنهم رحلوا منذ زمان .. أمه وحدها في الدار، وهو وحده في الميدان .. هي راضية، وهو فرحان.

(5)

قال الولد الذي بلغ سن الشباب والرجولة منذ زمان لأمه المشوقة إلى لحظة فرح:

- أريدها في ثوب أخضر.

- في ثوب أخضر.

- أو أبيض؟

- لا .. في ثوب أخضر .. أخضر.

- ولم لا يكون أبيض؟

- نذر .. ولابد من الوفاء .. كما الأغنية تقول.

- هيا فلتختاري .. وجددي الشباب.

- آن أن أراك معها في ثوبها الأخضر فرحانًا ريانًا.

شهقت عيناه بفرحة التمني وشوق الأمل .. ومع الرجاء الخاشع راحت تتخيل صورة الولد مع عروسه ذات الثوب الأخضر .. وجهها يعلو بشر مقيم.

أبريل 1974.

حلمي محمد القاعود

- مواليد 1944
- نشرت أبحاثه الأدبية ومقالاته النقدية وقصصه في مجالات مصر والعالم العربي، مثل: الرسالة والثقافة والجديد والمجلة وسنابل الشعر – قبل احتجابها، والأديب والآداب والبيان والموقف الأدبي والهلال والتحرير.
- فاز عام 1968 بجائزة مجمع اللغة العربية في مصر عن بحث بعنوان "مقومات الأدب في المجتمع الجديد".
- له تحت الطبع دراسة عن الروائي الراحل محمد عبد الحليم عبد الله اسمها "الغروب المستحيل".
- من كتبه المعدة للطبع:
  - موسم البحث عن هوية.
  - الشعر والفرسان – وجهة نظر في شعراء الأرض المحتلة.
  - عبد السلام العجيلي .. النموذج الباحث عن هوية.
  - بحيرة السلطان (مسرحية).
  - مجموعة قصصية أخرى.

الفهرس

***